وصايا ونصائح لطالب العلم

عبد الرحمن بن الجوزي

٥٠٨ - ٥٩٧ هـ

انتقاها وعلق عليها وحققها وخرج أحاديثها

محمد ابراهيم الشيباني

مكتبة دار الهداية

الكويت

«الهي لا تعذب لساناً يخبر عنك، ولاعيناً تنظر إلى علوم تدل عليك، ولاقدما تمشي إلى خدمتك، ولايداً تكتب حديث رسولك، فبعزتك لا تدخلني النار، فقد علم أهلها انى أذب عن دينك».

ابن الجوزى

مكتبة دار الهداية

الكويت ـ القبلة / قرب مبنى الكويتية

تلفون: ٤٥١٨٣٩ ـ ص. ب: ١٣٣٤٢

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله وصلاة على عباده الذين اصطفى وبعده:

مقدمة

هذه إخواني طلبة العلم، نصائح ووصايا إنتقيها وجمعتها لأهميتها من كتب ورسائل (١) عالم كان يذب عن سنة رسول الله صلى عليه وسلم زمناً طويلاً، عالم معروف بقوة علمه، أفنى حياته في طلبة وجمعه ونشره بين الناس، عالم كان يحضر مجالسه الاف الناس يطلبون العلم منه، وترق قلوبهم لمواعظه البليغة. وتدمع عيونهم متأثرة به.

واليوم نفتقر معشر طلبة العلم لهذه النصائح لينضبط مسلكنا في تحمله وادائه، والعمل على تطبيقه، والسعي الصحيح في جمعه،،

المحقق

---

(١) وكان أغلب الانتقاء من صيد الخاطر لابن الجوزي .

ابن الجوزى (١)
٥٠٨ ــ ٥٩٧ هـ
١١١٤ ــ ١٢٠١ م

نشأته

هو جمال الدين ابو الفرج عبد الرحمن بن علي بن محمد علي القرشي التيمي البكري (ذرية أبي بكر الصديق) الفقيه الحنبلي، المفسر الواعظ المؤرخ الأديب المعروف بابن الجوزي.

ولد ببغداد في زقاق «درب حبيب» واختلف في تاريخ ولادته بين «٥٠٨» و «٥١٢هـ»، وهذا الاختلاف في تاريخ ولادته حكاه الذين ترجموا له، ومنهم تلميذه الحافظ المنذرى في التكملة لوفيات النقلة ــ ٢٩٢/٢.

وتوفي أبوه وله من العمر ثلاث سنين، فرعته أمه ثم عمته، يقول (فإن أبي مات وأنا لاأعقل به، والام لم تلفت إلى) وكان أهله تجاراً بالنحاس وهذا يفسر مايوجد في بعض سماعاته القديمة من لقب «ابن الجوزى الصفار». وقد حكى ابن الجوزى عن نفسه انه تربى تربية مترفة نأت به عن ممارسة نوع من خشونة العيش حتى حين كان يختار ذلك إذ قال: فمن ألف الترف فينبغي أن يتلطف في أمره إذا أمكنه،

(١) هذه ترجمة مختصرة موجزة لابن الجوزى غير مطولة تناسب حجم الرسالة، ولنا ترجمة مطولة لابن الجوزى، في تحقيقنا لكتاب المنتظم في تاريخ الملوك والامم، الاجزاء الاولى الغير مطبوعة، يصدر الجزء الأول منها في المستقبل القريب بإذن العزيز القدير.

وقد عرفت هذا من نفسي، فإني ربيت في ترف، فلما ابتدأت في التقلل وهجر المشتهى، اثر معى مرضاً قطعنى عن كثير من التعبد، حتى إنى قرأت في أيام كل يوم خمسة أجزاء من القرآن، فتناولت ما لايصلح، فلم أقدر في ذل اليوم على قراءتها فقلت: إن لقمة توثر قراءة خمسة أجزاء بكل حرف عشر حسنات إن تناولها لطاعة عظيمة، وان مطعماً يؤذي البدن فيفوته فعل خيرينبغي أن يهجر... فالعاقل يعطى بدنه الغذاء مايوافقه».

علمه (١).

وما إن شب وترعرع حتى حملته عمته سنة «٥١٦» هـ إلى مسجد خاله المحدث اللغوى الفقيه، «أبى الفضل محمد ابن ناصر البغدادي» المتوفى ٥٥٠هـ، فاعتنى به عناية فائقه وكان أول معلم له، وقد حفظ في هذه المرحلة القرآن الكريم وسمع الحديث ولا سيما مسند ابن حنبل، وجامع الترمذي، وصحيحى البخاري، ومسلم، وتعلم اللغة والأدب، ومرن على الوعظ، وسمع تأريخ بغداد للخطيب واستدرك عليه مافاته ذكره في كتاب «فوات تاريخ الخطيب» كما أنه نظر في جميع الفنون المعروفة في عصره.

وكان له أساتذة كثيرون غير خاله إبن ناصر «مثل أبو منصور الجواليقى صاحب المعّرب» والمحدث ابن الطبر الحريري وأبو منصور محمد بن خيرون، وغيرهم حتى بلغ عددهم ستة وثمانين غير النساء.

وقد اتفق كل من ترجم له على أنه لم يكن في صغره يألف

(١) صيد الخاطر.

الصبيان أو يلعب لعبهم وأنه نشأ على العفاف والصلاح وهام بفنون العلم كلها منذ زمن الطفولة، وكان يريد الترقي في كل ذلك، ولكن العمر قصير والصناعة طويلة، «إني رجل حُبّبَ إليّ العلمُ من زمن الطفولة فتشاغلت به، ثم لم يحبب إليْ فن واحد، بل فنونه كلها، ثم لا تقتصر همتي في فن على بعضه، بل أروم استقصاءه، والزمان لا يتسع، والعمر ضيق، والشوق يقوى، والعجز يظهر فيبقى وقوف بعض المطلوبات حسرات...(١).

والحق ان ابن الجوزى برع في عدة علوم، وتبحر في ثقافات عصره، فقد كان امام وقته في الحديث حتى لقب بالحافظ، ونبغ في الوعظ والخطابة، والتأثير في النفوس حتى قال فيه ابن جبير: «حدث ولا حرج عن البحر، وهيهات، ليس الخَبرَ عنه كالخُبْر»!

ثم انه أتى بعد أن فرغ من خطبته برقائق من الوعظ وآيات بينات من الذكر، طارت لها القلوب اشتياقاً، وذابت بها الأنفس احتراقاً، إلى أن علا الضجيج، وتردد بشهقاته النشيج، وأعلن التائبون بالصياح..(٢)

وكان في اثناء مجلسه ينشد بأشعار من النسيب مبرّحة التشويق، بديعة الترقيق، تشعل القلوب وجداً، و يعود موضعها النسيبي زهداً، وهذه واحدة من الآبيات:

---

(١) انظر مشيخة ابن الجوزي ـــ تحقيق محمد محفوظ ،

(٢) رحلة ابن جبير ص ١٩٧.

أيــن فــؤادي أذابــهُ الــوجــدُ وأيــن قـلـبـي فـمـا صـحـا بـعـدُ
يـاسـعـدُ زدنـي جـوىً بـذكـرهـمُ بـاللـه قُـل لي فُـديـت يـاسـعـدُ

ومن شعره قوله يخاطب اهل بغداد :

عـذيـرى مـن فـتـيـةٍ بـالـعـراق قـلـوبـهـمُ بـالـجـفـا قُـلَّـبُ
يـرْون الـعـجـيـب كـلام الـغريب وقـولُ الـغـريـب فـلا يُـعـجْـب
مـيـازيـبـهـم ان تـنـدت بـخير الى غير جـيـرانـهـم تُـقْـلـبَ
وعـذرهـم عـنـد تـوبـيـخـهـم «مغنية الحى لا تطرب».

وله ديواناً بعنوان «ماقلته من الأشعار» وذكروا انها في عشر مجلدات.

عقيدته

كان يميل الى التأويل في صفات الله تعالى، وكلامه مضطرب في ذلك، ولم يكن خبيراً بحل كل شبه المتكلمين، وبيان فسادها، وجملة القول أنه كان أشعرياً، حنبلي المذهب ولكنه لم يكن متمكناً من منهج الحنابلة القائم على عدم التأويل (١).

مصنفاته

يقول إبن كثير رحمه الله في البداية والنهاية يصفه «أحد أفراد العلماء» برز في علوم كثيرة، وانفرد بها عن غيره، وجمع المصنفات

---

(١) وقد قام الطالب الباحث أحمد عطية الغامدي ــ جامعة المدينة المنورة ــ بعمل رسالة ماجستير في عقيدة ابن الجوزي أسماها [ابن الجوزي وعقائدة].

الكبار والصغار نحواً من ثلاثمائة مصنف، وكتب بيده نحواً من مائتي مجلدّ، وله في العلوم كلها اليد الطولى، والمشاركات في سائر أنواعها من التفسير والحديث والتاريخ، والحساب والنجوم والطب والفقه وغير ذلك من اللغة والنحو، وله من المصنفات في ذلك كله مايضيق هذا المكان عن تعدادها، وحصر أفرادها، منها كتاب التفسير المشهور «زاد المسير» وله تفسير ابسط منه ــ أى أوسع ــ لكنه ليس مشهور، وله جامع المسانيد استوعب غالب مسند أحمد وصحيحي البخارى ومسلم وجامع الترمذى، وله كتاب المنتظم في تاريخ الملوك والامم في عشر مجلدات.
و يقول ابن كثير: وقد أوردنا في كتابنا هذا كثيراً من حوادثه وتراجمه ولم يزل يؤرخ اخبار العالم حتى صار هو تاريخاً:

مازلت تدأب في التاريخ مجتهداً حتى رأيتك في التاريخ مكتوباً

قال الحافظ الذهبي: «ماعلمت أن أحد من العلماءَ صنف ماصنف هذا الرجل» وقال ابن تيمية: «عددت له أكثر من ألف مصنف، ورأيت بعد ذلك مالم أره».

وقال الذهبي: «كان مبرزا في التفسير وفي الوعظ وفي التاريخ، ومتوسطا في المذهب وله في الحديث إطلاع تام على متونه، وأما الكلام على صحيحه وسقيمه فما له ذوق المحدثين ولانقد الحفاظ المبرزين..»

و يؤخذ من كلام الذهبي ان ابن الجوزى لم يكن من الحفاظ النقاد وذلك لتعنته في جرح الأحاديث بجرح رواتها، فيبادر إلى الحكم

بوضع الحديث أو ضعفه بوجود قدح ولو يسير في راو يه، أو لمخالفته لحديث اخر.

وأنه كثيراً مايذكر الجرح ولايذكر التوثيق كما ورد ذلك في ترجمة ابان بن يزيد العطار فقد أورده ولم يذكر فيه أقوال من وثقه وهذا من عيوب كتابه، يسرد الجرح و يسكت عن التوثيق.

و بالجملة فكتبه أكثر من أن تعدّ وماناله من معرفة العلم لايقاوم وكتب بخطه شيئاً كثيراً وقسمت الكراريس على المدة فكان ما خص كل يوم تسع كراريس فرحمه الله رحمة واسعة وأجزل له المثوبة وسهل له طريق الجنة انه نعم المولى ونعم النصير و بالاجابة جدير.

واما عن كتبه المطبوع منها والمخطوط فهى كثيرة لاتحصى كما ذكرت ذلك أنفا لاأستطيع أن أذكرها هنا في المختصر ولكن فليرجع طالب العلم الى هذه المراجع فهي تغنيه وتفيده ومنها على سبيل المثال:

١) مؤلفات إبن الجوزى ــ مصادرها ــ الاستاذ عبد الحميد العلوجى. وهذا الكتاب يبين فيه الاستاذ العلوجى مؤلفات إبن الجوزى المطبوع منها والمخطوط وأماكن وجودها في العالم ــ طبعة بغداد سنة ١٣٨٥هـ.

٢) عقود الجوهر في تراجم من لهم خمسون تصنيفاً فأكثر ــ الاستاذ جميل العظم.

وفاته :

لم تطل حياته ابن الجوزى بعد خروجه من سجنه بواسط ورجوعه الى بغداد فقد توفى ليلة الجمعة بين في الثاني عشر من رمضات سنة ٥٩٧هـ ــ ١٢٠١م، وحملت جنازته على رؤوس الناس، وكان يوما مشهودا بكثرة الخلائق وشدة الزحام، حتى أنه اطر جماعة من شدة الحر، ودفن بمقبرة باب حرب في الجانب الغربي من بغداد عند ابيه بالغرب من الامام احمد بن حنبل(١).

(١) مشيخة ابن الجوزى ــ تحقيق محمد محفوظ ــ دار الغرب الاسلامي ــ بيروت.

أولاً :

* لذة العلم اعظم اللذات.
* على طالب العلم ان لايجهد نفسه.
* طريق الدرس لطالب العلم.
* ماذا يجب ان يدرس طالب العلم.
* طريقة الحفظ.
* التصنيف انفع من التدريس.
* ثمرة العلم.
* الاشتغال بالعلم مع ترقيق القلب.

لذة العلم:

لقد غفل طلاب الدنيا عن اللذة فيها شرف العلم، وزهرة العفة، وأنفة الحمية، وعز القناعة، وحلاوة الافضال على الخلق، فأما الالتذاذ بالمطعم والمنكح فشغل جاهل باللذة، لأن ذاك لايراد لنفسه بل لإقامة العوض في البدن والولد.

وأي لذة في النكاح وهي قبل المباشرة لاتحصل، وفي حال المباشرة قلق لايثبت، وعند انقضائها كأن لم تكن، ثم يثمر الضعف في البدن.

وأى لذة في جمع المال فضلاً (١) عن الحاجة، فإنه مستعبد للخازن، يبيت حذراً عليه، و يدعوه قليله الى كثيره.

وأي لذة في المطعم وعند الجوع يستوى خشنه وحسنه، فان ازداد خاطر بنفسه.

قال على بن أبى طالب رضى الله عنه: بنيت الفتنة على ثلاث، النساء وهو فخ إبليس المنصوب، والشراب وهو وسيلة المرهف(٢)، والدينار والدرهم، وهما سهماه المسمومان، فمن

---

(١) الفضل: الزيادة، اى المال الزائد عن الحاجة. وأما النكاح فقد حث الاسلام عليه، ومايعنيه المؤلف هو الاكثار منه أو التفكير المستمر به فيشغل به عن العلم وغيره.

(٢) الشراب هنا يعنى: الخمرة فهى تذهب العقول ولا تمتع الانسان بعقله الذى وهبه الله له لتمييز الخير من الشر.

مـال الى الـنـساء لم يصف له عيش، ومن أحب الشراب لم يمتع بعقل ومن أحب الدينار والدرهم كان عبداً لهما ماعاش(١).

على طالب العلم ان لايجهد نفسه:

اعـلـم ان المـتـعـلـم يفتقر الى دوام الدراسة، ومن الغلط الانـهـمـاك على الاعـادة لـيـلاً نـهـاراً، فإنه لايلبث صاحب هذه الحال إلا أيـامـاً ثـم يفتر أو يمرض، وقد رو ينا أن الطبيب دخل على أبي بكر بن الأنبارى في مرض موته فنظر الى مائه(٢) وقال: قد كـنـت تـفعل شيئاً لايفعله أحد، ثم خرج فقال: مايجيء منه شيء.

قال له : ماالذي كنت تفعل؟

قال : كنت أعيد كل أسبوع عشرة الآف ورقة.

ومـن الـغلط حفظ الكثير أو الحفظ من فتور، فإن القلب جـارحـة مـن الجـوارح، وكـما ان من الناس من يحمل المئة رطل

(١) كـمـا جـاء في الحديث الصحيح :ـ «تعس عبد الدينار وعبد الدرهم وعبد القطيفة وعبـد الخميصة، تعس وانتكس واذا شيك فلا انتقش». رواه البخارى وابن ماجه ١٣٨٦/٢.

وتعس : أى عثر وانكب على وجهه. وهو دعاء عليه.

(٢) أى بـولـه، وكـان جمع الـبـول في قوارير وعرضه على الطبيب هو الاسلوب الشائع في الفحص الطبى عند اطباء العرب من قبل تسعمائة سنة.

ومنهم من يعجز عن عشرين رطلاً، فكذلك القلوب، فليأخذ الإنسان على قدر قوته ودونها فإنه إذا استنفذها في وقت ضاعت منه أوقات، كما ان الشرَّةَ بأكل فضل لقيمات يكون سبباً إلى منع أكلات، والصواب أن يأخذ قدر ما يطيق، و يعيد في وقتين من النهار والليل، و يرفّه القوى في بقية الزمان، والدوام أصل عظيم، فكم ممن ترك بعد الحفظ فضاع زمن طو يل في إسترجاع محفوظ قد نسي، وللحفظ أوقات من العمر، فأفضلها الصبا ومايقارب به من أوقات الزمان، وأفضلها اعادة الأسحار وأنصاف النهار والغدوات خير من العشيّات، وأوقات الجوع (١) خير من أوقات الشبع.

ولا يحمد الحفظ بحضرة خضرة ولا على شاطىء نهر، لأن ذلك يلهى، والأماكن العالية للحفظ خير من السواحل، والخلوة أصل وجمع الهّم أصل الأصول، وترفيه النفس من الاعادة يوماً في الاسبوع ليثبت المحفوظ وتأخذ النفس قوة كالبنيان و يترك أياماً حتى يستقر ثم يبنى عليه وتقليل المحفوظ مع الدوام أصل عظيم، وألا يشرع في فن حتى يحكم ماقبله، ومن لم يجد نشاطاً للحفظ فليتركه، فإن مكابرة النفس لا تصلح، وإصلاح المزاج من الأصول العظيمة فان للمؤكولات أثراً في الحفظ.

---

(١) يريد مابين الطعامين لا وقت الجوع الشديد ـــ ذكره محقق صيد الخاطر.

قال الزهرى (١): ماأكلت خلاً منذ عالجت الحفظ.
وقيل لأ بي حنيفة (٢): بم يستعان على حفظ الفقه؟
قال بجمع الهم.
وقال حماد بن سلمة (٣): بقلة الغم.
وقال مكحول (٤): من نظف ثوبه قلّ همه، ومن طابت ريحه زاد عقله، ومن جمع بينهما زادت مروءته(٥).

---

(١) الزهرى: ابو بكر محمد بن مسلم بن عبيد الله بن عبد الله بن شهاب المدنى ــ أحد الاعلام كان أحفظ أهل زمانه، فقيه فاضل ــ طبقات الحفاظ ص ٤٢، تذكرة الحفاظ ١٠٧/١ شذرات الذهب ١٤٦/١.

(٢) أبو حنيفة: النعمان بن ثابت ــ الامام الفقيه المشهور يقال أصله من فارس و يقال من مولى بنى تميم من السادسة مات سنة خمسين ومائة على الصحيح وله سبعون سنة. تقريب التقريب ٣٠٢/٢.

(٣) حماد بن سلمة بن دينار البصرى أبو سلمة أحد الحفاظ، قال حجاج بن منهال. كان حماد بن سلمة من أئمة الدين وقال أحمد حماد بن سلمة أعلم الناس بحديث رسول الله صلى الله عليه وسلم واصحهم حديثاً، مات سنة سبع وستين ومائة. راجع تذكرة الحفاظ ٢٠١/١، تهذيب التهذيب ١٠١/١، طبقات الحفاظ ص ٨٧، ميزان الاعتدال ١٦/١.

(٤) مكحول الازدى البصرى: أبو عبد الله ، صدوق، من الرابعة ــ تقريب التهذيب ٢٧٣/٢.

(٥) أي من كان اهتمامه فقط بثوبه وعطره والتزين في كل وقت، فقد كان رسول الله صلى الله عليه وسلم ينهي عن الترجل إلا غباً». حسن صحيح أخرجه ابو داود والترمذي ــ راجع الاحاديث الصحيحة للالباني. ٥٠١.

واختار للمبتدىء في طلب العلم أن يدافع النكاح مهما أمكن فإن أحمد بن حنبل لم يتزوج حتى تمت له أربعون سنة، وهذا لأجل جمع الهم، فإن غلب عليه الأمر تزوج (١). واجتهد في المدافعة بالفعل لتتوفر القوة على إعادة العلم، ثم ينظر ما يحفظ من العلم فإن العمر عزيز والعلم غزير، وإن أقواماً يصرفون الزمان إلى حفظ ماغيره أولى منه، وإن كان كل العلوم حسناً ولكن الأولى تقديم الأهم والأفضل، وأفضل ماتشوغل به حفظ القرآن، ثم الفقه ومابعد هذا بمنزلة تابع، ومن رزق يقظة دلته يقظته فلم يحتج الى دليل، ومن قصد وجه الله تعالى بالعلم دله المقصود على الأحسن (٢) واتقوا الله و يعلمكم الله.

طريق الدرس لطالب العلم:

رأيت الشَّرهَ في تحصيل الاشياء يفوّق الشَّرهَ مقصوده، وقد رأينا من كان شرهاً في جمع المال فحصل له الكثير منه وهو حريص على الإزدياد، ولو فهم علم أن المراد من المال إنفاقه في العمر، فاذا أنفق العمر في تحصيله فات المقصودان جميعاً، وكم

(١) كما هي الحال في زماننا الذي كثرت فيه الفتن والمغريات والمغويات.

(٢) يحتج بعض الجهلة بهذه الآية على ان التصوف يغنى عن الطلب فينال صاحبه العلم وهو قاعد، وذلك غلط لأن الله يعلم من يتقى، والتقوى انما تكون في اتباع الأوامر واجتناب النواهي ومما أمرنا به طلب العلم، فمن لم يطلب العلم لم يكن من أهل التقوى ــ ذكره محقق صيد الخاطر.

رأينا من جمع المال ولم يتمتع به فأبقاه لغيره وأفنى نفسه كما قال الشاعر:

كدودة القز ماتبنيه يهدمها وغيرها بالذى تبنيه ينتفع

وكذلك رأينا خلقاً كثيراً يحرصون على جمع الكتب فينفقون أعمارهم في كتابتها، وكدأب أهل الحديث ينفقون الاعمار في النسخ والسماع إلى آخر العمر، ثم ينقسمون، فمنهم من يتشاغل بالحديث وعلمه وتصحيحه ولعله لايفهم جواب حادثة، ولعله عنده لحديث «أسلم سالمها الله(١)» مائة طريق.

وقد حكى لى عن بعض أصحاب الحديث انه سمع جزء ابن عرفه(٢) عن مائة شيخ، وكان عنده سبعون نسخة، ومنهم من يجمع الكتب و يسمعها ولايدرى مافيها لامن حيث صحتها، ولا من فهم معناها، فتراه يقول الكتاب الفلانى سماعى وعندى به نسخة والكتاب الفلاني والفلانى فلا يعرف علم ماعنده من

(١) حديث «أسلمُ سالمها الله وغفار غفر الله لها» رواه مسلم ١٩٥٣/٤ عن أبي هريرة. وفي رواية أخرى «..أما إني لم أقلها ولكن قالها الله عز وجل» رواه مسلم.

(٢) ابن عرفة هو: الحسن بن عرفة يزيد العبدي، أبو على البغدادي، صدوق من العاشرة، مات سنة سبع وخمسين ومائتين وقد جاوز المائة ــ طبقات الحفاظ ــ تقريب التهذيب ١٦٨/١، ولد سنة ١٥٠هـ، كما قال ابن الجوزى في المنتظم ٣/٥ والخطيب في تاريخ بغداد ٣٩٤/٧. ولقد عاش ابن عرفة مائة وعشر سنين وكان له عشرة أولاد سماهم بأسامي الصحابة.

حيث فهم صحيحه من سقيمه، وقد صده اشتغاله بذلك عن المهم من العلم فهم كما قال الحطيئة :

زوامل للاخبار لاعلم عندها   بمثقلها الا كعلم الاباعر
لعمرك مايدرى البعير اذا فدا   باوساقه أوراح مافي الغرائر(١)

ثم ترى منهم من يتصدر و يفتقر الزمان الى تصدره للرواية فيمد يده الى ماليس من شغله، فإن افتى أخطأ، وان تكلم في الأصول خلط، ولولا إني لا أحب ذكر الناس لذكرت من أخبار كبار علمائهم وماخلطوا مايعتبر به، ولكنه لايخفي على المحقق حالهم، فإن قال قائل: أليس في الحديث: منهومان لايشبعان طالب علم وطالب دنيا(٢).

قلت : أما العالم فلا أقول له اشبع من العلم ولا اقتصر على بعضه، بل أقول له قدم المهم فإن العاقل من قدر عمره وعمل بمقتضاه، وان كان لاسبيل الى العلم بمقدار العمر غير انه يبنى على الأغلب.

فإن وصل فقد أعد لكل مرحلة زاداً، وإن مات قبل الوصول فحسبه وذلك، فإن علم العاقل أن العمر قصير وأن العلم كثير، فقبيح بالعاقل الطالب لكمال الفضائل أن يتشاغل مثلاً بسماع الحديث ونسخه ليتحصل كل طريق، وكل رواية وكل

---

(١) الغرارة بالكسر واحدة غرائر ــ التبنْ وأظنه معرباً ــ مختار الصحاح ص ٤٧٢.

(٢) صحيح الجامع الصغير ٣٧٤/٥، مشكاة المصابيح ٨٦/١.

غـريب، وهذا لايفرغ من مقصوده منه في خمسين سنة خصوصاً ان تشاغل بالنسخ، ثم لايحفظ القرآن.

أو يتشاغل بعلوم القرآن ولا يعرف الحديث، أو بالخلاف في الفقة ولا يعرف النقل(١) الذي عليه مدار المسألة.

فإن قال قائل : فدبر لى ماتختار لنفسك.

فـأقـول : ذو الهـمـة لايخفي من زمان الصبى كما قال سفيان بن عـيـيـنـه(٢): قـال لى أبـى وقـد بـلـغـت خمس عشرة سنة، انه قد انـقـضـت عـنـك شرائع الصبا فاتبع الخير تكن من أهله، فجعلت وصية أبى قبله أميل إليها ولا اميل عنها.

ثـم قـبل شروعي في الجواب أقول: ينبغي لمن له أنفه أن يأنف من التقصير الممكن دفعه عن النفس، فلو كانت النبوة مثلا تـأتـى بـكـسب لم يجز له أن يقنع بالولاية أو تصور أن يكون مثلاً خليفة لم يحسن به أن يقتنع بإمارة، ولو صح له أن يكون ملكاً لم يرضى أن يكون بشراً.

والمـقـصـود أن ينتهى بالنفس إلى كمالها الممكن لها في الـعلم والعمل، وقد علم قصر العمر وكثرة العلم فيبتدىء بالقرآن وحـفـظه(٣)، و ينظر في تفسيره نظراً متوسطاً لا يخفى عليه بذلك

---

(١) اي الدليل النقلى : الحديث.

(٢) تذكرة الحفاظ ٢٦٢/١ ــ طبقات الحفاظ ص ١١٣.

(٣) انظر باب نصائح لطالب العلم، وعن طالب العلم ان لايجهد نفسه.

منه شيء، وإن صح له قراءة القراءات السبع وأشياء من النحو وكتب اللغة، ابتداءً بأصول الحديث من حيث النقل كالصحاح والمسانيد والسنن، ومن حيث علم الحديث كمعرفة الضعفاء والأسماء، فلينظر في أصول ذلك، وقد رتبت العلماء من ذلك مايستغنى به الطالب عن التعب، ولينظر في التواريخ ليعرف مالا يستغنى عنه كنسب الرسول صلى الله عليه وسلم وأقاربه وأزواجه وماجرى له، ثم ليُقبل على الفقه فلينظر في المذاهب، والخلاف وليكن إعتماده على مسائل الخلاف فلنظر في المسألة وماتحتوي عليه فيطلبه من مظانه، كتفسير آية وحديث وكلمة لغة، و يتشاغل بأصول الفقه و بالفرائض.

وليعلم أن الفقه عليه مدار العلوم(١) و يكفيه من النظر في الأصول(٢) مايستدل به على وجود الصانع، فاذاأثبته بالدليل وعرف مايجوز عليه مما لايجوز وأثبت ارسال الرسول وعلم وجوب

---

(١) انظر باب الفقه أفضل العلوم .

(٢) علم أصول الدين من توحيد الربوبية والألوهية وتوحيد الأسماء والصفات وأنواع الكفر والنفاق وذلك كما علمها أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم من رسول الله وعرفوها لمن بعدهم من التابعين وأتباعهم من سلف هذه الأمة الذين يصفون الله تعالى كما وصف نفسه وكما وصفه رسوله عليه السلام من غيرتشبيه أو تجسيم أو تعطيل أو تاويل أو نفى فيثبتون ما أثبته الله ورسوله و ينفون ما نفى الله ورسوله عن نفسه (ليس كمثله شيء وهوالسميع البصير) راجع رسالة الرد على من أنكر توحيد الاسماء والصفات ــ لعبد الرحمن عبد الخالق والأسماء والصفات للشنقيطى.

القبول منهم، فقد احتوى على المقصود من علم الأصول فإن اتسع الزمان للتزيد من العلم فليكن من الفقه فإنه الأنفع ومهما فسح له في المهل فأمكنه تصنيف في علم فانه يخلف بذلك خلفه خلفاً صالحاً مع اجتهاده في التسبب إلى إتخاذ الولد.

ثم يعلم ان الدنيا معبرة فيلتفت إلى فهم معاملة الله عز وجل(١)، فإن مجموع ماحصله من العلم يدله عليه، فاذا تعرض لتحقيق معرفته و وقف على باب معاملته فقل ان يقف صادق إلا ويجذب إلى مقام الولاية، ومن أريد وفقّ.

وإن لله عز وجل أقواماً يتولى تربيتهم و يبعث إليهم في زمن الطفولية(٢) مؤدباً و يسمى العقل، ومقوماً، و يقال له الفهم، و يتولى تأديبهم وتثقيفهم، و يهيء لهم أسباب القرب منه، فإن لاح قاطع قطعهم عنه وان تعرضت بهم فتنه دفعها عنهم فنسأل الله عز وجل أن يجعلنا منهم، ونعوذ به من خذلان لاينفع معه اجتهاد.

---

(١) ومن ذلك تقواه في السر والعلن وتوحيده والرضا بقضائه

(٢) وهذا قد لاحظناه في كثير من أئمة السلف رحمهم الله كالإمام الشافعي وأحمد وسفيان الثورى والبخاري ومسلم وأهل السنن وابن تيمية وغيرهم أوتوا الفهم والعقل والتقوى والعلم وذبوا عن هذا الدين انتحال المبطلين وتأويل الجاهلين رحمهم الله رحمة واسعة.

ماذا يجب ان يدرس طالب العلم:

هذا فصل غزير الفائدة، اعلم أنه لو اتسع العمر لم أمنع من الايغال في كل علم الى منتهاه، غير ان العمر قصير، والعلم كثير، فينبغي للانسان ان يقتصر من القراءات اذا حفظ القرآن على العشر(١).

ومن الحديث على الصحاح، والسنن والمسانيد المصنفة، فان علوم الحديث قد انبسطت زائدة في الحد، وما في هذا الجزء، وانما الطرق تختلف، وعلم الحديث يتعلق ببعض وهو مشتهى والفقهاء يسمونه علم الكسالى، لأنهم يتشاغلون بكتابه وسماعه، ولا يكادون يعانون حفظه، و يفوتهم المهم وهو الفقه.

وقد كان المحدثون قديماً هم الفقهاء، ثم صار الفقهاء لايعرفون الحديث، والمحدثون لايعرفون الفقه، فمن كان ذاهمة ونصح نفسه تشاغل بالمهم من كل علم، وجعل شغله الفقه فهو أعظم العلوم وأهمها، وقد قال أبو زرعة(٢): كتب إلى أبو ثور(٣): فان هذا الحديث قد رواه ثمانية

---

(١) من فضل الله تعالى وكرمه على الأوائل أن أبناءهم كانوا يحفظون القرآن في هذا السن ومرد ذلك اهتمامهم به حكماً وتطبيقاً، فلما طال الزمان وقست قلوب المسلمين إلا من رحم إندرس حفظ القرآن عند الصغار فضلاً عن الكبار فلاحول ولاقوة إلا بالله.

(٢) طبقات الحفاظ ص٣٩٦، تاريخ بغداد ١٠٩/٤ ــ تذكرة ١٠٠٠/٣ ــ أبو زرعة. الرازى الصغير احمد بن الحسين بن الحكم.

(٣) ابراهيم بن خالد بن أبي اليمان أبو ثور طبقات الحفاظ ص ٢٢٣ تاريخ بغداد ٦٥/٦ تذكرة الحفاظ ٥١٢/٢.

وتسعون رجلاً عن رسول الله صلى الله عليه وسلم(١)، والذي صح منه طرق يسيرة فالتشاغل بغير ماصح يمنع التشاغل بما هو أهم، ولو اتسع العمر كان استيفاء كل الطرق في كل الأحاديث غاية الجودة ولكن العمر قصير.

ولما تشاغل بالطرق مثل يحي بن معين فاته من الفقه كثير، حتى انه سئل عن الحائض أيجوز أن تغسل الموتى؟ فلم يعلم حتى جاء أبو ثور فقال: يجوز، لأن عائشة رضى الله عنها قالت: كنت أرجل رأس رسول الله صلى الله عليه وسلم وأنا حائض(٢)، فيحي أعلم بالحديث منه، ولكن لم يتشاغل بفهمه، فأنا أنهى أهل الحديث أن يشغلهم كثرة الطرق.

ومن أقبح الأشياء أن تجرى حادثة يسأل عنها شيخ قد كتب الحديث ستين سنة فلا يعرف حكم الله عز وجل فيها.

وكذلك أنهى من يتشاغل بالتزهد والانقطاع عن الناس أن يعرض عن العلم بل ينبغى أن يجعل لنفسه منه حظاً ليعلم إن زل كيف يتخلص.

---

(١) الحديث الذي يكون بهذه الصفة يسميه المحدثون بالحديث المتواتر وهو الذي يرو يه جمع كثير يستحيل عليهم الكذب.

(٢) حديث رواه البخاري ٦٣/٣ «باب الاعتكاف في العشر الآواخر.

طريقة الحفظ :

مارأيت أصعب على النفس من الحفظ للعلم والتكرار، وخصوصا تكرار ماليس لها في نفس تكراره، وحفظه حظ، مثل مسائل الفقه، بخلاف الشعر والسجع، فإن لها لذة في اعادته وان كان يصعب، لأنها تلتذ به من مرة ومرتين، فاذا زاد التكرار صعب عليها، ولكن دون صعوبة الفقه وغيره من المستحسنات عند الطبع فتراها تخلد الى الحديث، والشعر والتصانيف والنسخ لانه يمر بها كل لحظة مالم تره، فهو في المعنى كالماء الجارى، لأنه جزء، وكذا من ينسخ مايجب أن يسمعه أو يصنف، فإنه يلتذ بالجدة و يستريح من تعب الاعادة، الا أنه ينبغي للعاقل أن يكون جل زمانة للاعادة، خصوصاً الصبى والشاب، فأنه يستقر المحفوظ عندهم استقرارا لايزول، ويجعل أوقات التعب من الاعادة للنسخ، ويحذر من تفلتها إلى النسخ عن الاعادة فيقهرها، فانه يحمد ذلك حمد السُرى وقت الصباح، وسيندم من لم يحفظ ندم الكسعى(١) وقت الحاجة الى النظر والفتوى، وفي الحفظ نكتة(٢) ينبغي ان تلحظ، وهو ان الفقيه يحفظ الدرس و يعيده، ثم يتركه فينساه فيحتاج الى زمان آخر لحفظه، فينبغي أن يحكم الحفظ و يكثر التكرار ليثبت قاعدة الحفظ.

---

(١) رجل من العرب يضرب به المثل في الندم.

(٢) يعنى نقطة.

التصنيف أنفع من التدريس :

رأيت من الرأى القويم أن نفع التصانيف أكثر من نفع التعليم بالمشافهة، لأنى أشافه في عمرى عدداً من المتعلمين وأشافه بتصنيفي خلقا لايحصون ماخلقوا بعد(١).

ودليل هذا أن انتفاع الناس بتصانيف المتقدمين أكثر من انتفاعهم بما يستفيدون من مشايخهم، فينبغي للعالم أن يتوفر على التصانيف ان وفق للتصنيف المفيد، فانه ليس كل من صنف صنف، وليس المقصود جمع شيء كيف كان، وانما هى أسرار يطلع الله عز وجل عليها من شاء من عبادة(٢) و يوفقه لكشفها، فيجمع مافرق أو يرتب ماشتت، أو يشرح ما أهمل، هذا هو التصنيف المفيد.

و ينبغي إغتنام التصنيف في وسط العمر، لان أوائل العمر زمن الطلب، وآخره كلال الحواس، وربما خان الفهم والعقل من قدر عمره، وانما يكون التقدير على العادات الغالبة، لا أنه يعلم الغيب فيكون زمان الطلب والحفظ والتشاغل إلى الأربعين، ثم يبدأ بعد الأربعين بالتصانيف والتعليم هذا إذا كان قد بلغ مايريد من الجمع والحفظ وأعين على تحصيل المطالب.

---

(١) صحيح والله، رحمه الله وأجزل له المثوبة لان الكتاب يقرأه أكثر من الذي يستمع إلى الدرس أو المحاضرة و يقرأه خلق لم يخلقوا بعد.

(٢) جعلنا الله منهم، ونفعنا بعلومهم فقد كان العلماء الأوائل رحمهم الله قد أفادوا العلم وأهله بما قاموا به من اختصارات لكتب السابقين التي فقدت في الحروب والاضطرابات.

فأما إذا قلت الآلآت عنده من الكتب، أو كان في أول عمره ضعيف الطلب فلم ينل مايريده في هذا الآوان، أخر التصانيف الى تمام خمسين سنة، ثم ابتدأ بعد الخمسين في التصنيف والتعليم إلى رأس الستين، ثم يزيد فيما بعد الستين في التعليم و يسمع الحديث والعلم و يعلل التصانيف الى رأس السبعين، فاذا جاوز السبعين جعل الغالب عليه ذكر الآخرة والتهيؤ للرحيل، فيوفر نفسه على نفسه إلا من تعليم يحتسبه، او تصنيف يفتقر اليه، فذلك أشرف القدر للاخرة.

ولتكن همته في تنظيف نفسه وتهذيب خلاله، والمبالغة في استدراك زلا ته، فإن اختطف في خلال ماذكرنا فنية المؤمن خير من عمله، وإن بلغ الى هذه المنازل فقد بينا مايصلح لكل المنازل.

وقد قال سفيان الثوري(١): من بلغ سن رسول الله صلى الله عليه وسلم فليتخذ لنفسه كفناً. وقد بلغ جماعة من العلماء سبعاً وسبعين سنة، منهم أحمد بن حنبل، فان بلغها فليعلم أنه على شفير القبر، وإن كل يوم يأتي بعدها مستطرف، فان تمت له الثمانون فليجعل همته كلها مصروفة الى تنظيف خلاله، وتهيئة زادة، وليجعل الاستغفار حليفه، والذكر أليفة، وليدقق في محاسبة النفس في بذل العلم، أو مخالطة الخلق، فان قرب الاستعراض للجيش يوجب عليهم الحذر من العارض، وليبلغ في ابقاء أثره قبل رحيله مثل بث علمه، وانفاق كتبه وشيء من ماله.

---

(١) سفيان بن سعيد بن مرزق الثورى أبو عبد الله الكوفي ثقة حافظ فقيه أمام حجة من رؤس الطبقة السابعة تقريب التهذيب ٣١١/١، طبقات الحفاظ ص٨٨.

وبعد فمن تولاه الله عز وجل علمه، ومن أراد الهمه، نسأل الله عز وجل أن ينعم علينا بأن يتولانا ولا يتولى عنا إنه قريب مجيب.

ثمرة العلم:

تأملت أحوال الناس في حالة علو شأنهم فرأيت أكثر الخلق تبين خسارتهم حينئذ، فمنهم من بالغ في المعاصى من الشباب، ومنهم من فرط في اكتساب العلم، ومنهم من أكثر من الاستمتاع باللذات حينئذ. فكلهم نادم في حالة الكبر حين فوات الاستدراك لذنوب سلفت، أو قوى ضعفت، أو فضيلة فاتت، فيمضى زمان الكبر في حسرات، فان كانت للشيخ افاقه من ذنوب قد سلفت قال: وآسفاً. على ماجنيت. وإن لم يكن له افاقة صار متأسفا على فوات ماكان يلتذ به. فأما من أنفق عصر الشباب في العلم، فانه في زمن الشيخوخه يحمد جنى ماغرس، ويلتذ بتصنيف ماجمع، ولايرى مايفقد من لذات البدن شيئا بالاضافة الى ماينااله من لذات العلم، هذا مع وجود لذاته في الطلب الذي كان تأمل به إدراك المطلوب. وربما كانت تلك الأعمال أطيب مما نيل منها كما قال الشاعر:

اهتز عند تمنى وصلها طرباً ورب أمنية أحلى من الظفر

ولقد تأملت نفسي بالإضافة إلى عشيرتي الذين انفقوا أعمارهم في اكتساب الدنيا، وانفقت زمن الصبوة والشباب في طلب العلم، فرأيتنى لم يفتنى مما نالوه الا ما لوحصل لى ندمت عليه ثم تألمت حالى

فاذا عيشي في الدنيا أجود من عيشهم، وجاهي بين الناس أعلى من جاههم، وما نلته من معرفة العلم لايقاوم.

فقال إبليس : ونسيت تعبك وسهرك؟ فقلت له: أيها الجاهل، تقطيع الأيدي لا وقع له عند رؤية يوسف وماطالت طريق أدت إلى صديق:

جزى الله المسير إليه خيراً   وان ترك المطايا كالمزاد(١)

ولقد كنت في حلاوة طلبي العلم القى من الشدائد ماهو عندى أحلى من العسل، لأجل ماأطلب وأرجو.

كنت في زمان الصبا آخذ معى أرغفة يابسة فأخرج في طلب الحديث، وأقعد على نهر عيسى(٢)، فلا أقدر على أكلها إلا عند الماء، فكلما أكلت لقمة شربت عليها، وعين همتي لا ترى إلا لذة تحصيل العلم، فأثمر ذلك عندى انى عرفت بكثرة سماعى لحديث سير الرسول

---

(١) جمع مزادة أى تركها جلدا على عظم.

(٢) نهر عيسى : كورة وقرى كثيرة وعمل واسع في غربي بغداد مأخذه من الفرات عند قنطرة دمما، وعيسى هوابن على بن عبد الله بن العباس.

قال الشاعر:

ياليت انا قد رأينا العيسا   قد وافت السبت أو الخميسا

بطابع قد فارق النحوسا   والسفن قد رفت بنهر عيسى

ــ المناسك وأماكن طرق الحج لأ بواسحاق الحربى ــ تحقيق حمد الجاسر.

صلى الله عليه وسلم وأحواله وآدابه، وأحوال أصحابه وتابعيهم، فصرت في معرفة طريقه كابن أجود وأثمر ذلك عندى من المعاملة مالا يدرك بالعلم، حتى انني أذكر في زمان الصبوة ووقت الغلمة والعزبة قدرتي على أشياء كانت النفس تتوق اليها توقان العطشان الى الماء الزلال، ولم يمنعني عنها الا ما أثمر عندى من العلم وخوف الله عز وجل، ولولا خطايا لايخلو منها البشر، فقد أخاف على نفسي من العجب غيرانه عز وجل صانني وعلمني واطلعني من اسرار العلم على معرفته، وايثار الخلوة به، حتى انه لو حضر معي معروف و بشر(١) لرأيتهما زحمة.

ثم عاد فغمسني في التقصير والتفريط حتى رأيت أقل الناس خيراً مني، وتارة يوقظني لقيام الليل ولذة مناجاته وتارة يحرمني ذلك مع سلامة بدني، ولولا بشارة العلم بان هذا نوع تهذيب وتأديب لخرجت اما الى العجب عند العمل واما الى اليأس عند البطالة، ولكن رجائي في فضله قد عادل خوفي منه، فمنذ كنت طفلاً فاني أبي مات وأنا لاأعقل به، والام لم تلتفت الى، فركز في طبعي حب العلم ومازال يوقني على المهم فالمهم، ويحملني الى من يحملني على الاصوب حتى قوم أمرى،

---

(١) هو معروف بن الفيرزان ابو محفوظ العابد المعروف بالكرخي، منسوبا الى كرخ بغداد، كان احد المشتهرين بالزهد والعزوف عن الدنيا يغشاه الصالحون، تاريخ بغداد ١٣/١٩٩. و بشر بن الحارث بن عبد الرحمن بن عطاء بن هلال بن ماهان بن عبد الله ابو نصر المعروف بالحافي وزى سكن بغداد وكان ممن فاق عصره في الورع والزهد وتفرد بوفور العقل وعزوف النفس ــ تاريخ بغداد ٦٧/٧. فمعروف و بشر معروفان بالزهد والعبادة.

وكـم قـد قصدني عدو فصده عني. وإذا رأيته قد نصرني و بصرني ودافع عني، ووهب لى قوى رجائي في المستقبل بما قد رأيت في الماضي.

ولـقـد تـاب على يـدى في مجـالـس الذكر أكثر من مائتى ألف وأسـلم على يدى أكثر من مائتى نفس، وكم سألت عين متجبر يوعظنى لم تكن تسيل، ويحق لمن تلمح هذه الانعام أن يرجو التمام.

وربما لاحـت أسـباب الخوف بنظرى الى تقصيري وزللي، ولقد جـلسـت يـوماً فرأيت حولى أكثر من عشرة الاف إلا من قد رق قلبه، أو دمعت عينه، فقلت لنفسي: كيف بك ان نجو وهلكت؟.

فـصحت بلسان وجدى: الهى وسيدى ان قضيت على بالعذاب غـداً فـلا تـعلمهم بعذابي صيانة لكرمك لا لاجلي، لئلا يقولوا عذب من دل عـليـه (١) الهـى قـد قـيل لنبيك صلى الله عليه وسلم: اقتل ابن أبى المـنـافـق (٢) فـقـال: لايتحدث الناس ان محمدا يقتل أصحابه (٣) الهى فـأحـفـظ حـسـن عقائدهم في بكرمك ان تعلمهم بعذاب الدليل عليك، حاشاك والله يارب من تكدير الصافي.

---

(١) نفعنا الله تعالى بعلومهم ووفقنا لشفافية تقواهم وورعهم.

(٢) عبد لله بن أبي ابن سلول كبير المنافقين في المدينة الذي تولى كبره منهم والذي اذى رسول الله صلى الله عليه وسلم في زوجه عائشة أم المؤمنين رضى الله عنها وارضاها الصديقة بنت الصديق.

(٣) رواه البخارى عن جابر بن عبد الله في حديث الافك جـ ١٤٨/٥.

الاشتغال بالعلم مع ترقيق القلب :

تأملت العلم والميل إليه والتشاغل به، فاذا هو يقوى القلب قوة يميل به إلى نوع قساوة، ولولا قوة القلب وطول الامل لم يقع التشاغل به، فاني أكتب الحديث أرجو أن أرو يه، وأبتدىء بالتصنيف أرجو أن أتمه فاذا تأملت الى باب المعاملات(١) قل الأمل، ورق القلب، وجاءت الدموع، وطابت المناجاة، وغشيت السكينة، وصرت كأني في مقام المراقبة، إلا أن العلم أفضل وأقوى حجة، وأعلى رتبة، وان حدث منه ماشكوت منه، والمعاملة وان كثرت الفوائد التي أشرت اليها منها فانها قريبة الى أحوال الجبان الكسلان، الذي قد اقتنع بصلاح نفسه عن هداية غيره، وانفرد بعزلته عن اجتذاب الخلق الى ربهم، فالصواب العكوف على العلم مع تلذيع النفس بأسباب المرققات تلذيعاً لايقدح في كمال التشاغل بالعلم، فاني لاكره لنفسي من جهة ضعف قلبي ورقته أن أكثر زيارة القبور(٢) وأن أحضر المحتضرين. لان ذلك يؤثر في الموت، ولا أنتفع بنفسي مدة وفصل الخطاب في هذا أنه ينبغي أن يقاوم المرض بضده فمن كان قاسياً شديد القسوة وليس عنده من المراقبة(٣)

---

(١) أي الذكر والعبادة .

(٢) جاء عن النبي صلى الله عليه وسلم انه قال: كنت نهيتكم عن زيارة القبور ألا فزوروها فانها ترق القلب وتدمع العين وتذكر الآخرة «رواه أحمد وهو صحيح».

(٣) حقيقة المراقبة هي ملاحظة الرقيب وانصراف الهم إليه، و يعنى بها حالة القلب يثمرها نوع من المعرفة، وتثمر تلك الحالة أعمالاً في الجوارح وفي القلب، أما الحالة فهي مراعاة القلب للرقيب وملاحظته إياه، وأما المعرفة فهو العلم بان الله مطلع على الضمائر عالم بالسرائر، رقيب على أعمال العباد قائم على كل نفس بما كسبت.

مـايـكفه عن الخطأ قاوم ذلك بذكر الموت (١) ومحاضرة المحتضرين، فاما مـن قـلبه شديد الرقة فيكفيه مابه بل ينبغي له أن يتشاغل بما ينسيه ذلك لـينتفع بعيشه وليفهم مايفتى به، وقد كان الرسول صلي الله عليه وسلم يمـزح و يـسـابق عائشة(٢) و يتلطف بنفسه فمن سار سيرته عليه الصلاة والسلام فهم من مضمونها ماقلته من التلطف بالنفس.

---

(١) كما جاء عن النبي صلى الله عليه وسلم «اذكروا هاذم اللذات (الموت)» رواه ابن ماجه ١٤٢٢/٢ والترمذي في الزهد والنسائي في الجنائز وهو صحيح وله طريقان عن أنس وأبى هريرة.

(٢) حـديـث مسابقة النبى صلى الله عليه وسلم لعائشة أخرجه أبو داود في كتاب الجهاد بـاب الـسبق على الرجل وأخرجه أيضا النسائي وابن ماجه، ونصه عن عائشة قالت: خرجـت مـع الـنبي صلى الله عليه وسلم في بعض أسفاره وأنا جارية لم أحمل اللحم ولـم أبـدن فـقـال للـنـاس: تـقدموا ثم قال لى: تعالى حتى أسابقك فسابقته فسبقته، فـسكـت عـنـى حتى اذا حملت اللحم و بدنت ونسيت خرجت معه في بعض اسفاره فـقـال للناس: تقدموا فتقدموا ثم قال : تعالى حتى أسابقك فسابقته فسبقني، فجعل يضحك و يقول: هذه بتلك رواه الامام احمد. وعن أبي داود «هذه بتلك السبقة»

ثالثـــــا:

* نصائح لطالب العلم، نصائح لطلاب العلم.
* العلم والفقـــر.
* نصائح لطالب العلم الفقير.
* على طـالـب الـعـلم كسب المعاش ــ حاجة طالب العلم الى المعاش.
* وصايا لطالب العلم.

تعلم الحديث خير من التنفل(١).

سبحان من منّ على الخلق بالعلماء الفقهاء الذين فهموا مقصود الأمر ومراد الشارع، فهم حفظة الشريعة فأحسن الله جزاؤهم، وان الشيطان ليتجافاهم خوفاً منهم، فانهم يقدرون على اذاه، وهو لايقدر على اذاهم، ولقد تلاعب بأهل الجهل وقليلي الفهم، وكان من أعجب تلاعبه ان حسّن لا قوام ترك العلم ثم لم يقنعوا بهذا حتى قدحوا في المتشاغلين به.

وهذا (لوفهموه) قدح في الشريعة.

فأن رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: بلغوا عنى (٢). وقد قال له ربه عز وجل: «بلغ»(٣) فاذا لم يتشاغل بالعلم فكيف يبلغ الشريعة الى الخلق؟ ولقد نقل مثل هذا عن كبار الزهاد، كبشر الحافى فإنه قال لعباس بن عبد العظيم: لاتجالس أصحاب الحديث.

---

(١) وذلك لما جاء في فضل العالم على العابد من حديث معاذ وأبى أمامة وحذيفة «فضل العلم أحب الى من فضل العبادة وخير دينكم الورع» فضل العبادة: أي نفل العلم افضل العمل كما أن فرض العلم أفضل من فرض العمل وفضل العلم مازاد على المفترض قال الحسن: اطلبوا العلم طلبا لايضر العبادة واطلبوا العبادة طلبا لايضر العلم وعن ابى ذر و أبي هريرة رضى الله عنهما قالا باب من العلم نتعلمه أحب الينا من ألف ركعة تطوعا و باب من العلم تعلمه عمل به أو لم يعمل أحب الينا من مائة ركعة تطوعا.

(٢) رواه أحمد والبخارى والترمذى بلفظ «بلغوا عنى ولو آية، وحدثوا عن بنى اسرائيل ولاحرج ومن كذب على متعمداً فليتبوأ مقعده من النار» عن ابن عمرو.

(٣) المائدة : ٦٧.

وقال لاسحق بن الضيف: انك صاحب حديث فأحب أن لا تعود إلىّ، ثم اعتذر فقال: إنما الحديث فتنه إلا لمن أراد الله به، وإذا لم يعمل به فتركه أفضل.

وهذا عجب منه! من اين له أن طلابه لايريدون الله به، وأنهم لايعملون به؟ أو ليس العمل به على ضربين: عمل بما يجب، وذلك لايسع أحداً تركه، والثاني نافلة ولايلزم، والتشاغل بالحديث أفضل من التنفل بالصوم والصلاة وماأظنه أراد إلا طريقه في دوام الجوع والتهجد، وذلك شيء لايلام تاركه.

فإن كان يريد أن لايوغل في علوم الحديث فهذا خطأ لأن جميع أقسامه محمودة(١) أفترى لو ترك الناس طلب الحديث كان بشر يُفتى؟ فالله الله في الالتفات إلى قول من ليس بفقيه، ولايهولنك تعظيم اسمه فالله يعفو عنه(٢).

العلم والعبادة

مما يزيد العلم عندى فضلاً، ان قوماً تشاغلوا بالتعبد عن العلم، فوقفوا عن الوصول الى حقائق الطلب، فروى عن بعض القدماء انه قال

(١) راجع تدريب الراوى للسيوطي في بيان أقسام الحديث والباعث الحثيث لابن كثير تحقيق أحمد شاكر.

(٢) بشر الحافى كما هو معروف عابد وليس بعالم ليؤخذ منه العلم فهاهنا يحذر المؤلف رحمه الله من أن يؤخذ من العابد الناسك العلم فيخلط بذلك مع أهل العلم، ففى مصطلح علم الحديث مثلا لايؤخذ حديث من يكون عابداً صالحاً أو ماشبه ذلك وهو غير ضابط للحديث أو ثقة. فتنبه.

لرجل: « ياأبا الوليد، إن كنت أبا الوليد يتورع أن يكنيه ولا ولد له، ولو أوغل هذا في العلم لعلم أن النبي صلى الله عليه وسلم كنى صهيباً أبا يحى، وكنى طفلاً فقال: ياأبا عمير، مافعل النغير(١). وقال بعض المتزهدين: قيل لى يوماً، كل من هذا اللبن، فقلت: هذا يضرنى، ثم وقفت بعد مدة عند الكعبة فقلت: اللهم إنك تعلم انى ماأشركت بك طرفة عين، فهتف بى هاتف: ولا يوم اللبنّ وهذا لو صح جاز أن يكون تأديباً له، لئلا يقف مع الاسباب ناسياً للمسبب، والا فالرسول صلى الله عليه وسلم قد قال: مازالت أكلة خيبر تعاودنى حتى قطعت أبهرى(٢) .

---

(١) طائر اسمه النقر والنغير على التصغير وكان هذا الطفل أخو أنس بن مالك يقول أبي التياح سمعت أنس بن مالك يقول: كان رسول الله صلي الله عليه وسلم يخالطنا حتى يقول لأخ لي صغير «ياأبا عمير مافعل النغير» قال وكيع : يعنى طيراً كان يلعب به روى الحديث البخارى وابن ماجه ١٢٢٦/٢ والنسائي والترمذى وأحمد ورواه ابن السنى ص ١٥٥ باب «تكنية الاطفال».

(٢) رواه ابن السنى وأبي نعيم في الطب عن أبى هريرة بلفظ «مازالت اكلة خيبر تعاودنى كل عام حتى كان هذا آوان قطع ابهري والابهر: عرق في الظهر يقال له الوريد في العنق، وبعضهم يجعله عرقا مستبطن الصلب، وقيل: الابهران الاكحلان وفلان شديد الابهر أي الظهر. والابهر: عرق اذا انقطع مات صاحبه وهما أبهران يخرجان من القلب ثم يتشعب منهما سائر الشرايين، قال أبو عبيد: الابهر عرق مستبطن في الصلب والقلب متصل به فاذا انقطع لم تكن معه حياة وأنشد الاصمعى لابن مقبل

وللفؤاد وجيب تحت أبهره
لدم الغلام وراء الغيب بالحجر =

وقال: مانفعنى مال كمال أبى بكر(١).

ومن المتزهدين أقوام يرون التوكل قطع الاسباب كلها، وهذا جهل بالعلم(٢)، فإن النبى صلى الله عليه وسلم دخل الغار(٣)، وشاور الطبيب (٤) ولبس الدرع(٥)، وحفر الخندق (٦) ودخل مكة في جوار المطعم بن عدى وكان كافراً (٧) وقال لسعد: لأن تدع ورثتك أغنياء

= والوجيب تحرك القلب تحت ابهره والدم: الضرب، والغيب: ماكان بينك و بينه حجاب يريد ان للفؤاد صوتاً يسمعه ولايراه ــ لسان العرب ٢٧٦/١ ــ والفتح ٤٩٧/٧.

(١) صحيح رواه احمد وابن ماجه ٣٦/١ عن أبي هريرة بلفظ مانفعني مال قط مانفعني مال أبي بكر» وراجع فضائل أبى بكر الصديق في الفتح ١٦/٧ بشرح أحمد بن حجر.

(٢) نعم وهذا ليس جهلا بالعلم فقط انما جهلٌ بأصول الدين والالكان رسول الله صلى الله عليه وسلم أول المخالفين عند أولئك الجهال. فالدين توكل و بذل أسباب.

(٣) في هجرته الى المدينة مع ابي بكر الصديق وذلك في غار ثور عام ثلاث عشر من النبوة.

(٤) راجع زاد المعاد ١٣٢/٤ ــ ١٣٥.

(٥) لبس رسول الله الدرع (لامة الحرب) في غزوة احد في شوال من السنة الثالثة للهجرة.

(٦) حفر رسول الله الخندق مع صحابته لمقاتلة الاحزاب وهم قريش وقطفان واليهود ومن تبعهم وغزوة الخندق وهى الاحزاب كانت في شوال سنة أربع كما قال موسى بن عقبة ــ فتح البارى ٤٩٢/٧.

(٧) أجاره فبات عند ليلة صلى الله عليه وسلم؛ فلما اصبح خرج معه هو ونبوه ستة ــ أو سبعة ــ متقلدي السيوف جميعا فدخلوا المسجد وقال لرسول الله صلى الله عليه وسلم طف واحتبوا بحمائل سيوفهم في المطاف، فأقبل أبو سفيان الى مطعم. فقال: أمجير =

خير لك من ان تدعهم عالة يتكففون الناس (١)، فالوقوف مع الأسباب مع نسيان المسبب غلط، وكل هذه الظلمات انما تقطع بمصباح العلم، ولقد ضل من مشى في ظلمة الجهل أو في زقاق الهوى .

المؤلف يناجى ربه ويحاسب نفسه

تفكرت في نفسي يوماً تفكر محقق، فحاسبتها قبل ان تحاسب، ووزنتها قبل أن توزن (٢) فرأيت اللطف الرباني، فمنذ الطفولة والى

= أوتابع؟ قال : بل مجير قال: اذا لاتحفز فجلس معه حتى قضى رسول الله صلى الله عليه وسلم طوافة فلما انصرف انصرفوا معه. وذهب أبوسفيان الى مجلسه فمكث اياما ثم اذن له في الهجرة فلما هاجر رسول الله صلى الله عليه وسلم الى المدينة توفي مطعم بن عدي بعده بيسير فقال حسان بن ثابت: والله لارثنيه فقال فيما قال:

فلو كان مجد مخلد اليوم واحد
من الناس نحى مجده اليوم مطعما
أجرت رسول الله منهم فأصبحوا
عبادك ما لبى محلّ وأحرما
فلو سئلت عنه معد بأسرها
وقحطان أو باقي بقية جرهما

البداية والنهاية ٣/١٣٧ ــ ١٣٨

(١) عن سعد بن ابى وقاص قال: مرضت عام الفتح حتى اشفيت على الموت فعادني رسول الله صلى الله عليه وسلم فقلت: أي رسول الله ان لي مالا كثيرا وليس يرثنى الا ابنة لى أفأتصدق بثلثى مالى قال «لا» قلت: فالشطر؟ قال: «لا» قلت: فالثلث؟ قال «الثلث» و الثلث كثير. ان تذر ورثتك أغنياء خير من ان تذرهم عالة يتكففون الناس» رواه ابن ماجه ٢/٩٠٤ وهو صحيح.

(٢) ولقد كان ديدن أمير المؤمنين عمر بن الخطاب محاسبة نفسه لائماً لها ومن جميل أقواله» حاسبوا أنفسكم قبل ان تحاسبوا وزنوا انفسكم قبل أن توزنوا فانه أهون =

الآن ارى لطفاً بعد لطف، وستراً على قبيح وعفواً عما يوجب عقوبة، وما أرى لذلك شكراً الا باللسان، ولقد تفكرت في خطايا لو عوقبت ببعضها لهلكت سريعاً، ولو كشف للناس بعضها لاستحيت، ولايظن في مايظن في الفساق، بل هى ذنوب قبيحة في حق مثلى، وقعت بتأويلات فاسدة، فصرت اذا دعوت أقول «اللهم بحمدك وسترك علىّ اغفر لى، ثم طالبت نفسى بالشكر على ذلك فما وجدت كما ينبغى.

ثم أنا أتقاضي القدر مراداتي ولا اتقاضي نفسي بصبر على مكروه، ولا بشكر على نعمة، فأخذت أنوح على تقصيري في شكر المنعم.

وكونى أتلذذ بإيراد العلم من غير تحقيق عمل به، وقد كنت أرجو مقامات الكبار، فذهب العمر وما حصل المقصود، فوجدت أبالوفاء بن عقيل قد ناح نحو مانحت فأعجبتنى نياحته فكتبتها ههنا. قال لنفسه:

يارعناء تقوّمين الالفاظ ليقال: مناظر، وثمرة هذا (يامناظر) كما يقال للمصارع: الغارة.

ضيعت أعز الاشياء وأنفسها عند العقلاء وهى أيام العمر حتى شاع لك من بين يموت غداً اسم مناظر، و ينسى الذاكر والمذكور إذا درست القلوب، هذا ان تأخر الأمر إلى موتك بل ربما نشأ شاب اخره منك فموّهوا له وصار الاسم له.

= عليكم في الحساب غداً أن تحاسبوا أنفسكم يوم القيامة وتزينوا للعرض الاكبر يومئذ تعرضون لاتخفى منكم خافية «راجع كتاب ذم الهوى لابن الجوزى ص٤٠، ٤١».

والعقلاء عن الله تشاغلوا بما إذا انطووا نشرهم وهو العمل بالعمل، والنظر الخالص لنفوسهم، أف لنفسى وقد سطرت عدة مجلدات في فنون العلوم وماعبق بها فضيلة(١) إن نوظرتْ شمختْ، وإن نوصحت تعجرفت، وان لاحت الدنيا طارت اليها طيران الرخم، وسقوط الغراب على الجيف، فليتها أخذت أخذ المضطر من الميتة، توفر في المخالطة عيوباً تبلى ولا تحتشم نظر الحق إليها، وإن إنكسر لها عرض تضجرت، فإن أمدت بالنعم اشتغلت عن المنعم.

أف والله منى اليوم على وجه الأرض وغداً تحتها، والله ان نتن جسدى بعد ثلاث تحت التراب اقل من نتن خلائقي وأنا بين الأصحاب، والله إنني قد أبهرني حلم هذا الكريم عني كيف يسترني وأنا أنتهكّ؟ ويجمعني وأنا أتشتت؟

وغداً يقال: مات الحبر العالم الصالح، ولو عرفوني حق معرفتي بنفسي مادفنوني، والله لأنادين على نفسي نداء المكشفين معايب الأعداء، ولأنوحن نوح الثاكلين للابناء إذ لا نائح لى ينوح على لهذه المصائب المكتومة، والخلال المغطاة التي قد شدها من خبرها وغطاها من علمها.

---

(١) يقول ابن الجوزى في صيد الخاطر «فركز في طبعي حب العلم، ومازال يوقعنى على المهم فالاهم ويحملنى الى من يحملنى على الاصوب حتى قوم أمرى» فحفظ القرآن وسمع الحديث وقرأه على جماعة من القراء بالروايات وسمع بنفسه الكثير، وعنى بالطلب، ونظر في جميع الفنون واتجه منذ نشأته الى الوعظ فوعظ من صغره وفاق أقرانه ونشأت له في ذلك ملكه عجيبة و بديهة حضارة وكانت عين همته لاترى الالذة تحصيل العلم، فأثر ذلك في حياته فشاعت لابن الجوزى شهرة في كثرة التأليف =

والله ماأجد لنفسى خلة أستحسن أن أقول متوسلاً بها: اللهم اغفر لى كذا بكذا، والله ماالتفت قط إلا وجدت منه سبحانه براً يكفيني ووقاية تحمينى، مع تسلط الأعداء، ولو عرضت حاجة فمددت يدى إلا قضاها.

هذا فعله وهو رب غنى عنى، وهذا فعلى وأنا عبد فقير إليه، ولا عذر لى فأقول ما دريت أو سهوت والله خلقنى خلقاً صحيحاً سليماً، ونور قلبى بالفطنة، حتى ان الغائبات والمكتومات تنكشف لفهمى.

فوا حسرتاه على عمر انقضى فيما لايطاق الرضى، واحرمانى لمقامات الرجال الفطناء، ياحسرتي على ما فرطت في جنب الله وشماته العدو بي، واخيبة من أحسن الظن بى إذا شهدت الجوارح علىّ(١) وأخذ لوني عند إقامة الحجة، سخر والله منى الشيطان وأنا الفطن.

= وأحاطت المبالغة بعدد كتبه وعندما سئل ابن الجوزى عن عدد مؤلفاته قال: زيادة على ثلاثمائة وأربعين مصنفاً منها ماهو عشرون مجلداً وأقل. قال الذهبي: ماعلمت أن أحداً من العلماء صنف ماصنف هذا الرجل وقال ابن خلكان: و بالجملة فكتبه أكبر من أن تعد وكتب بخطه شيئاً كثيراً.

(١) ومصداق ذلك قوله تعالى «اليوم نختم على أفواههم وتكلمنا أيديهم وتشهد أرجلهم بما كانوا يكسبون» سورة يس: ٦٥. وقوله تعالى في سورة النورآية: ٢٤ «يوم تشهد عليهم ألسنتهم وأرجلهم بما كانوا يعملون» وكما جاء عند مسلم ٢٢٧٩/٤ في حديث طو يل هذا جزء منه وهو تقرير النعم يوم القيامة على الكافر والمنافق ــ (... ثم يقال له: الان نبعث شاهدنا عليك، و يتفكر في نفسه من ذا الذي يشهد علي؟ فيختم على فيه و يقال لفخذه ولحمه وعظامه: انطقي فتنطق فخذه ولحمه وعظامه بعمله وذلك ليعذر عن نفسه، وذلك المنافق وذلك الذي يسخط الله عليه».

اللهم توبة خاصة من هذه الاقذار، ونهضة صادقة لتصفية مابقى من الاكدار، وقد جئتك بعد الخمسين وأنا من خلق المتاع، وأبى العلم إلا أن يأخذ بيدى إلى معدن الكرم، وليس لى وسيلة إلا التأسف والندم، فوالله ماعصيتك جاهلاً بمقدار نعمك، ولا ناسياً لما أسلفت من كرمك فاغفر لى سالف فعلى(١).

بين العلم والعمل

قلت يوماً في مجلسى: لو أن الجبال حملت ما حملت لعجزت، فلما عدت الى منزلى قالت لى النفس كيف قلت هذا، وربما أوهم الناس أن بك بلاء وأنت في عافية في نفسك وأهلك؟

وهل الذي حملت إلا التكاليف الذي يحمله الخلق كلهم؟ فما وجه هذه الشكوى؟ فأجبتها انى لما عجزت عما حملت، قلت الكلمة لا على سبيل الشكوى، ولكن للاسترواح، وقد قال كثير من الصحابة والتابعين قبلى: ليتنا لم نخلق! وما ذاك إلا لا ثقال عجزوا عنها، ثم من ظن أن التكاليف سهلة فما عرفها، أترى يظن الظان أن التكاليف غسل الاعضاء برطل من الماء أو الوقوف في محراب لاداء ركعتين؟ هيهات هذا اسهل التكليف. وان التكليف هو الذي عجزت عنه الجبال ومن جملته: اننى إذا رأيت القدر يجرى بما لايفهمه العقل، ألزمت

(١) هكذا ينبغي لكل عبد يتقى الله أن يكون محاسب نفسه على الدوام صابراً على بلاء الله محتسباً له. فرحم الله المؤلف رحمة واسعة ورضى الله عنه.

العقل الاذعان للمقدر فكان من أصعب التكليف، وخصوصاً فيما لا يعلم لعقل معناه كإيلام الاطفال، وذبح الحيوان، مع الاعتقاد بأن المقدر لذلك والآمر به أرحم الراحمين. فهذا مما يتحير العقل فيه، فيكون تكليف التسليم، وترك الاعتراض فكم بين تكليف البدن وتكليف العقل! ولو شرحت هذا لطال، غير أني اعتذر عما قلته، فأقول عن نفسي، ومايلزمني حال غيري: انني رجل حُبب إليّ العلم من زمن الطفولة فتشاغلت به ثم لم يحبب إليّ فن واحد منه، بل فنونه ثم لاتقتصر همتي على فن على بعضه بل أروم استقصاءه، والزمان لايسع، والعمر أضيق والشوق يقوى، والعجز يقعد، فيبقى وقوف بعض المطلوبات حسرات، ثم إن العلم دلني على معرفة المعبود، وحثني على خدمته، ثم صاحت بي الادلة عليه إليه، فوقفت بين يديه، فرأيته في نعته وعرفته بصفاته، وعاينت بصيرتي من الطافه مادعاني الى الهيمان في محبته، وحركني إلى التخلي لخدمته، وصار يملكني أمر كالوجد كلما ذكرته، فعاودت خلوتي في خدمتي له، أحلى عندي من كل حلاوة فكلما ملت الى الانقطاع عن الشواغل والى الخلوة، صاح بي العلم: اين تمضي؟ أتعرض عني وأنا سبب معرفتك؟ فاقول له: إنما أنت دليلاً وبعد الوصول يستغنى عن الدليل، قال: هيهات كلما زدت زادت، معرفتك بمحبوبك، وفهمت كيف القرب منه، ودليل هذا انك تعلم غداً، انك اليوم في نقصان، أو ما سمعته يقول لنبيه صلى الله عليه وسلم «وقل ربي زدني علما»(١).

(١) سورة طه : اية ١١٤.

ثـم ألـسـت تـبغي القرب منه؟ فأشتغل بدلالة عباده عليه، فهي حالات الانبياء عليهم الصلاة والسلام.

أما علمت أنهم آثروا تعليم الخالق على خلوات التعبد، لعلمهم أن ذلـك آثـر عـنـد حـبيبهم؟ أما قال الرسول صلى الله عليه وسلم لعلي رضى الله عنه: لأن يهدى الله بك رجلا خير لك من حمر النعم (١) فلما فهمت صدق هذه المقالة، تهوست (٢) على تلك الحالة، وكلما تشاغلت بـجـمع الناس عليّ، تفرق همى، وإذا وجدت مرادى من نفعهم، ضعت أنـا، فأبقى في خير التحير متردداً، ولا أدرى على أى القدمين أعتمد، فاذا وقـفـت مـتـحيراً صاح العلم، قم لكسب العيال، وادأب في تحصيل ولد يـذكـر الله، فاذا شرعت في ذلك قلص ضرع الدنيا وقت الحلب، ورأيت بـاب الـمـعـاش مـسـدوداً في وجـهـى لأن صـناعة العلم شغلتنى عن تعلم صـنـاعـة، فـاذا إلـتـفت إلى أبناء الدنيا رأيتهم لا يبيعون شيئاً من سلعها الابـديـن الـمشترى وليت من نافقهم أورأياهم(٣) نال من دنياهم، قال الشرع: كفى بالمرء إثماً أن يضيع من يقوت.

وان قـال الـغـرم: إنـفـردْ، قـال: فكيف بمن تعول؟ فغاية الأمر إنـنـي أشـرع في التقلل من الدنيا، وقد ربيت في نعيمها وقذيت بلبانها، ولطف مزاجي فوق لطف وضعه بالعادة.

---

(١) رواه البخارى ٥/٢٣ وراجع الفتح ٧/٧٠ في فضائل علي بن أبى طالب.

(٢) حزنت على حالة الناس واعراضهم عن ربهم.

(٣) وهو الرياء أي مراءاة الناس للوصول إلى غاية من الغايات الدنيوية الزائلة

فاذا غيرت لباسي وخشنت مطعمى، لأن القوت لا يحتمل لانبساط نفر الطبع لفراق العادة، فحل المرض فقطع عني واجبات، وواقع في آفات، ومعلوم أن لين اللقمة بعد التحصيل من الوجوه المستطابة وتخشينها لمن لم يألف سعي في تلف النفس، فأقول: كيف أصنع وما الذي أفعل؟ واخلو بنفسى في خلواتى وأتزيد من البكاء على نقص حالاتى، وأقول: أصف حال العلماء وجسمي يضعف عن عادة العلم وحال الزهاد، وبدنى لا يقوى على الزهد وحال المحبين، ومخالطة الخلق تشتت همى، وتنقش صور المحبوبات من الهوى في نفسى، فتصدأ مرآة قلبى وشجرة المحبة تحتاج إلى تربية في تربة طيبة لتسقى ماء الخلوة، ومن دولاب الفكرة، وان آثرت التكسب لم أطق وان تعرضت لأ بناء الدنيا مع إن طبعى الأنفة من الذل، وتديني يمنعني فلا يبقى للميل مع هذين الجاذبين أثر، ومخالطة الخلق تؤذى النفس، مع الانفاس، فلا تحقيق التوبة أقدر عليه ولانيل مرتبة من علم أو عمل أو محبة يصح لي فاذا رأيتنى كما قال القائل:

ألقاه في الماء مكتوفاً وقال له ... إياك أن تبتل بالماء

تحيرت في أمرى و بكيت على عمرى وأنادى في فلوات خلواتي بما سمعته من بعض العوام (١) وكأنه وصف حالى

واحسرتى كم أدارى فيك تعثيرى ... مثل الأسير بلا حيل ولا سيرى
ماحيلتى في الهوى قد ضاع تدبيرى ... لما شكلت جناحي قلت لى طيرى

---

١) من المواليا وهونوع من الشعر العامى ذكره طنطاوى في صيد الخاطر.

• إذا عظمّ العالم نفسه خفيت عليه أخطاؤه

أفضل الأشياء التزيد من العلم، فانه من اقتصر على مايعلمه فطنه كافياً استبد برأيه، وصار تعظيمه لنفسه مانعاً له من الاستفادة، والمذاكرة وتبين له خطاؤه، وربما كان معّظماً في النفوس فلم يتجاسر على الرد عليه ولو أنه أظهر الاستفادة لأهديت مساو يه فعاد عنها، وترك تعظيم نفسه لبان له الصواب غيران إقتصار الرجل على علمه إذا مازجه نوع رؤية للنفس حبس من إدراك الصواب، نعوذ بالله من ذلك(١).

• في عقوبة العلماء

أعظم المعاقبة أن لا يحس المعاقب بالعقوبة، وأشد من ذلك أن يقع السرور بما هوعقوبة، كالفرح بالمال الحرام، والتمكن من الذنوب ومن هذه حاله لا يفوز لطاعة.

وإني تدبرت أحوال أكثر العلماء المتزهدين فرأيتهم في عقوبات لا يحسون بها، ومعظمها من قبل طلبهم للرياسة. فالعالم منهم يغضب إن ترد عليه خطؤه، والواعظ متصنع بوعظه، والمتزهد منافق أو مراء.

---

(١) وما أكثرهم الذين يحبون كثرة الجمع والثناء وحسد من يعتلي عليهم علماً، نعوذ بالله من ذلك، وما أقلهم الذين يدعون لاخوانهم بزيادة العلم وأن يبارك الله فيه كما كان السلف يدعوبعضهم لبعض. يقول الامام أحمد بن حنبل رحمه الله لولد الشافعي: «أبوك من الستة الذين أدعو لهم كل ليلة وقت السحر».

فكانوا يدعون لبعضهم البعض و يستفيدون منه لأنهم ركب تصاحبوا فتوادوا، فالأيام والليالي مراحلهم إلي سفر الجنة.

فأول عقوباتهم إعراضهم عن الحق شغلا بالخلق، ومن خفيّ عقوباتهم سلب حلاوة المناجاة ولذة التعبد. إلا رجال مؤمنون ونساء مؤمنات، يحفظ الله بهم الأرض، بواطنهم كظواهرهم وسرائرهم كعلانيتهم بل أحلى وهممهم عند الثريا بل أعلى ان عرفوا تنكروا وان رئيت لهم كرامة أنكروا.

فالناس في غفلاتهم وهم قطع فلاتهم تحبهم بقاع الارض وتفرح بهم أملاك السماء.

نسأل الله عز وجل التوفيق لاتباعهم وأن يجعلنا من أتباعهم.

في العزلة

مازالت نفسى تنازعنى بما يوجبه مجلس الوعظ، وتوبة التائبين، ورؤية الزاهدين، إلى الزهد والانقطاع عن الخلق والانفراد بالآخرة، فتأملت ذلك فوجدت عمومه من الشيطان، فان الشيطان يرى انه لا يخلو لى مجلس من خلق لا يحصون، يبكون و يندبون على ذنوبهم، و يقوم في الغالب جماعة يتوبون و يقطعون شعور الصبا، وربما بلغوا خمسين ومئة.

ولقد تاب عندي في بعض الأيام اكثر من مائة، وعمومهم صبيان قد نشأوا على اللعب والانهماك في المعاصي. (١)

---

(١) قال ابن الجوزى في «لفتة الكبد» ص ٤٨ ــ الطبعة السلفية ــ ولقد وضع الله لى من القبول قي قلوب الخلق فوق الحد، وأوقع كلامى في نفوسهم فلا يرتابون بصحته، وقد أسلم على يدى نحو مائتين من اهل الذمة، ولقد تاب في مجالسي اكثر من مائة الف، وقد قطعت اكثر من عشرين الف سالف مما يتعاناه الجهال ــ كما يفعل التائهون الحيارى من الشباب اليوم من ترجيل الشعر وتجعيده وتلميعه وتطويله تشبها بالنساء اقتداءاً بهن فلا حول ولا قوة الا بالله.

فكأن الشيطان لبعد غوره في الشر رآني أجتذب إليّ من أجتذب منه، فأراد أن يشغلني عن ذلك بما يزخرفه ليخلو بمن إجتذبه من يده، ولقد حسّن إليّ الانقطاع عن المجالس وقال؛ لا يخلوا من تصنع للخلق.

فقلت: أما زخرفة الألفاظ وتزويقها، واخراج المعنى من مستحسن العبارة ففضيلة لا رذيلة، وأما أن أقصد الناس بما لا يجوز في الشرع فمعاذ الله، ثم رأيته يريني في التزهد قطع أسباب، ظاهرها الاباحة من الاكتساب، فقلت له: فان طاب لي الزهد، وتمكنت من العزلة، فنفذ ما بيدي أو احتاج بعض عائلتي، ألست أعود القهقرى؟ فدعني أجمع ما يسد خلتي و يصونني عن مسألة الناس، فأن مد عمري، كان نعم السبب، وإلا كان للقائلة، ولا أكون كراكب اراق ماءه لرؤية سراب، فلما ندم وقت الفوات لم ينتفع بالندم، وانما الصواب توطئة المضجع قبل النوم، وجمع المال الساد للخلة قبل الكبر، آخذا بالحزم، وقد قال الرسول صلى الله عليه وسلم: «لأن تترك ورثتك أغنياء خير لك من ان تتركهم عالة يتكففون الناس» (١)

وقال: «نعم المال الصالح، للرجل الصالح (٢)

وأما الانقطاع فينبغى ان تكون العزلة عن الشر لا عن الخير، والعزلة عن الشر واجبة على كل حال، وأما تعليم الطالبين وهداية

---

(١) رواه مسلم ١٢٥٣/١ وأحمد مالك والأربعة والبخاري عن سعد بن أبي وقاص.

(٢) رواه أحمد وهو صحيح راجع مشكاة المصابيح ٣٣٩/٢ ـ ٣٤٠ تحقيق العلامة محمد ناصر وراجع شرح السنة للبغوي عن عمرو بن العاص.

المريدين، فانه عبادة العالم، وان من تفضيل بعض العلماء إيثاره للتنقل بالصلاة والصوم، عن تصنيف كتاب أو تعليم علم ينفع لان ذلك بذر يكثر ريعه، ويمتد الزمان نفعه، وإنما تميل النفس الى ما يزخرفه الشيطان من ذلك لمعنيين:

احدهما: حب البطالة لأن الانقطاع عندها أسهل.

والثاني: لحب المدحة فانها اذا توسمت بالزهد كان ميل العوام اليها أكثر، فعليك بالنظر في الشرب الأول، فكن مع الشرب المقدم، وهم الرسول صلى الله عليه وسلم وأصحابه، رضى الله تعالى عنهم، فهل نقل عن أحد منهم ما ابتدعه جهلة المتزهدين والمتصوفة من الانقطاع عن العلم، والانفراد عن الخلق؟

وهل كان شغل الأنبياء إلا معاناة الخلق، وحثهم على الخير ونهيهم عن الشر؟ إلا أن ينقطع من ليس بعالم يقصد الكف عن الشر، فذاك في مرتبة المحتمى يخاف شر التخليط، فأما الطبيب العالم بما يتناول فانه ينتفع بما يناله.

عزلة العالم

ما أعرف للعالم قط لذة ولا عزاً ولا شرفاً ولا راحة ولا سلامة أفضل من العزلة، فانه ينال بها سلامة بدنه ودينه وجاهه عند الله عز وجل وعند الخلق، لأن الخلق يهون عليهم من يخالطهم، ولا يعظم عندهم قول المخالط لهم، ولهذا عظم قدر الخلفاء لاحتجاجهم، واذا رأى العوام أحد العلماء مترخصاً في أمر مباح هان عندهم. فالواجب عليه صيانة علمه وإقامة قدر العلم عندهم، فقد قال بعض السلف: كنا نمزح

ونضحك، فاذا صرنا يقتدى بنا فما أراه يسعنا ذلك. وقال سفيان الثورى: تعلموا هذا العلم واكظموا عليه، ولا تخلطوا بهزل فتمجه القلوب. فمراعاة الناس لا ينبغي ان تنكر. (١)

وقد قال صلى الله عليه وسلم لعائشة: لولا حدثان قومك في الكفر لنقضت الكعبة وجعلت لها بابين (٢). وقال أحمد بن حنبل في الركعتين قبل المغرب: رأيت الناس يكرهونها فتركتهما. (٣)

(١) وهو أن يتقى المزاح وكثرة الضحك فانه يقلل الهيبة و يسقط الحشمة كما قيل من مزح أستخف به ومن اكثر من شيء عرف به.

(٢) رواه البخارى ـ٤٣،٤٤ومسلم ٩٦٩/١، ٩٧٩ وغيرهم من طرق عديدة و بألفاظ متنوعة.

ومن فقه الحديث يدل على أمرين: الأول أن القيام بالاصلاح إذا ترتب عليه مفسدة أكبر منه وجب تأجيله، ومنه أخذ الفقهاء قاعدتهم المشهورة (درء المفسدة قبل جلب المصلحة).

الثاني: أن الكعبة المشرفة بحاجة الآن الى الاصلاحات التي تضمنها الحديث لزوال السبب الذى من أجله ترك رسول الله صلى الله عليه وسلم ذلك، وهو أن تنفر قلوب من كان حديث عهد بشرك في عهده صلى الله عليه وسلم، وقد نقل إبن بطال عن بعض العلماء (أن النفرة التي خشيها صلى الله عليه وسلم أن ينسبوه إلى الانفراد بالفخر دونهم). ويمكن حصر تلك الاصلاحات فيما يلي:

١) توسيع الكعبة وبناؤها على أساس ابراهيم عليه الصلاة والسلام، وذلك بضم نحو ستة أذرع من الحجر.

٢) تسوية أرضها بأرض الحرم.

٣) فتح باب آخر لها من الجهة الغربية.

٤) جعل البابين منخفضين لتنظيم وتيسير الدخول والخروج منها لكل من شاء.

راجع الأحاديث الصحيحة ٦٩/١، ٧٠ لمحدث الشام الالباني.

(٣) جاء عن النبي صلى الله عليه وسلم، بين كل أذانين صلاة (ثلاثاً) لمن شاء.. وأما =

ولا تسمع من جاهل يرى مثل هذه الاشياء رياء إنما هي صيانة للعلم.

وبيان هذا أنه لوخرج العالم إلى الناس مكشوف الرأس أو في يده كسره يأكلها قل عندهم وان كان هذا مباحاً، فيصير بمثابة تخليط الطبيب الآمر بالحمية، فلا ينبغى، للعالم أن ينبسط عند العوام حفظاً لهم، ومتى أراد مباحاً فليستر به عنهم.

وهذا القدر الذى لاحظه أبو عبيدة حين رأى عمر بن الخطاب رضى الله عنهما قد قدم الشام راكباً على حمار ورجلاه من جانب، فقال: يا أمير المؤمنين يتلقاك عظماء الناس، فما أحسن مالاحظ ! إلا أن عمر رضى الله عنه أراد تأديب أبى عبيدة بحفظ الأصل فقال: إن الله أعزكم بالاسلام فمهما طلبتم العز في غيره أذلكم (١) والمعنى أن يكون طلبكم العز بالدين لا بصور الأفعال، وإن كانت الصور تلاحظ، فان الانسان يخلو في بيته عرياناً، فاذا خرج إلى الناس لبس ثوبين وعمامة ورداء، ومثل هذا لا يكون تصنعاً ولا ينسب الى كبر، وقد كان مالك بن أنس يغتسل و يتطيب و يقعد للحديث (٢)

= فعل الامام أحمد رحمه الله فلربما لا يريد بذلك تأويل الجهلة من الناس بأنه يصلى في وقت الكراهة فتركهما صيانة للعلم فدرء المفسدة أولى من جلب المصلحة والله اعلم.

(١) وذلك عند فتح بيت المقدس.

(٢) إذا عزم على مجلس التدريس تطهر من الحدث والخبث وتنظف وتطيب ولبس أحسن ثيابه بين أهل زمانه قاصداً بذلك تعظيم العلم وتبجيل الشريعة. و يزال يبخر بالعود حتى يفرغ، وقال أحب أن أعظم حديث رسول الله، تذكرة السامع والمتكلم ص ٣١.

ولاتلتفت يا هذا إلى ماترى من بذل العلماء على أبواب السلاطين، فان العزلة أصون للعالم والعلم، وما يخسره العلماء في ذلك أضعاف ما ير بحونه.

وقد كان سيد الفقهاء سعيد بن المسيب لا يغشى الولاة، وعن قول هذا سكتوا عنه، وهذا الحازم. فان أردت اللذة والراحة فعليك أيها العالم بعقر بيتك وكن معتزلا عن أهلك يطب لك عيشك، وأجعل للقاء الأهل وقتاً، فاذا عرفوه تصنعو للقائك، فكانت المعاشرة بذلك أجود.

وليكن لك بيت في بيتك تخلوا فيه وتحادث سطور كتبك وتجرى في حليات فكرك، واحترس من لقاء الخلق وخصوصا العوام، واجتهد في كسب يعفك عن الطمع.

فهذه نهاية لذة العالم في الدنيا، وقد قيل لابن المبارك: مالك لا تجالسنا؟ فقال: أنا أذهب فاجالس الصحابة والتابعين وأشار بذلك إلى أنه ينظر في كتبه، ومتى رزق العالم الغنى عن الناس والخلوة، فان كان له فهم يجلب التصانيف فقد تكاملت لذته، وان رزق فهماً يرتقى إلى معاملة الحق ومناجاته فقد تعجل دخول الجنة قبل الممات (١)

نسأل الله عز وجل همة عالية تسمو الى الكمال، وتوفيقاً لصالح الاعمال، فالسالكون طريق الحق أفراد.

---

(١) لان لذة المناجاة في الخلوات أعظم اللذات وكأنها من نعيم الجنات ـ ذكره طنطاوى في صيد الخاطر.

ثانيـــا:

* تعلم الحديث خير من التنفل.
* العلم والعبادة .
* المؤلف يناجي ربه ويحاسب نفسه.
* بين العلم والعمل.
* اذا عظم العالم نفسه خفيت عليه اخطاؤه.
* عقوبة العلماء.
* في العزلة ــ عزلة العالم.

بدل عن ص ٣٥

نصائح لطالب العلم

اللذات كلها بين حسي وعقلي، فنهاية اللذات الحسية وأعلاها النكاح، وغاية اللذات العقلية العلم، فمن حصلت له الغايتان في الدنيا فقد نال النهاية، وأنا أرشد الطالب إلى أعلى المطلوبين، غير أن للطالب المرزوق علامة وهو أن يكون مرزوقاً علوّ الهمة، وهذه الهمة تولد مع الطفل، فتراه من زمن طفولتهِ يطلب معالى الأمور، كما يروى في الحديث انه كان لعبد المطلب مفرش في الحِجْر فكان النبى صلى الله عليه وسلم يأتى وهو طفل فيجلس عليه فيقول عبد المطلب: ان لابنى هذا شأناً.

فان قال قائل: فاذا كانت لى همة ولم أرزق ما أطلب فما الحيلة؟ فالجواب انه إذا امتنع عن الرزق من نوع لم يمتنع من نوع آخر، ثم من البعيد أن يرزقك همة ولا يعينك، فانظر في حالك فلعله أعطاك شيئاً، ما شكرته، وابتلاك بشيء من الهوى ما صبرت عنه، واعلم أنه ربما زَوى عنك من لذات الدنيا كثيراً ليوفرك على لذات العلم فانك ضعيف ربما لاتقوى على الجمع، فهو اعلم بما يصلحك.

وأما ما أردت شرحه لك فان الشاب المبتدىء في طلب العلم ينبغى له ان يأخذ من كل علم طرفاً، ويجعل علم الفقه الأهم (١)، ولا يقصر في معرفة النقل (٢)، فبه تبين سير الكاملين، واذا رزق فصاحة

---

(١) انظر باب «طريق الدرس لطالب العلم».

(٢) أى الاحاديث فقط دون الفقه فيها وما أكثرهم اليوم الذين يحققون ويخرجون الاحاديث ولا فقه لهم فيها. والعوام لا يفرقون بين من عرف الاسناد وعلومه والفقه وأصوله، فالله المستعان.

من حيث الوضع ثم أضيف اليها معرفة اللغة والنحو فقد شحذت شفرة لسانه على أجود مسن، ومتى أدى العلم لمعرفة الحق وخدمة الله عز وجل فتحت له أبواب لا تفتح لغيره، و ينبغى له بالتلطف ان يجعل له جزءا من زمانه مصروفاً إلى توفير الاكتساب والتجارة، ومستبيناً فيها غير مباشر لها، ومع التدبير في العيش الممتنع من الاسراف والتبذير.

نصائح لطلاب العلم

تأملت حالة تدخل على طلاب العلم توجب الغفلة عن المقصود، وهو حرصهم على الكتابة خصوصاً المحدثين، فيستغرق ذلك زمانهم عن ان يحفظوا و يفهموا، فيذهب العمر وقد عروا عن العلم الا اليسير، فمن وفق جعل معظم الزمان مصروفاً في الاعادة والحفظ، وجعل وقت التعب من التكرار للنسخ فيحصل له المراد. والموفق من طلب المهم فان العمر يعجز عن تحصيل الكل، وجمهور العلوم الفقه، في الناس من حصل له العلم وغفل عن العمل بمقتضاه، وكأنه ماحصل شيئاً، نعوذ بالله من الخذلان.

العلم والفقر

أعظم البلايا أن يعطيك عالية ويمنعك من العمل بمقتضاها فيكون من تأثير همتك الأنفة من قبول ارفاق الخلق استثقالا لحمل متهم ثم يبتليك بالفقر فتأخذ منهم و يلطف مزاجك فلا تقبل من المأكولات ماسهل إحضاره فتحتاج إلى فضل نفقة ثم يقلل رزقك و يعلق همتك بالمستحسنات و يقطع السبيل اليهن و يريك العلوم في مقام معشوق

و يضعف بدنك عن الاعادة ويخلي يديك من المال الذي تحصل به الكتب و يقوى توقك إلي درجات العارفين والزهاد ويحوجك الي مخالطة أرباب الدنيا وهذا البلاء المبين، وأما خسيس الهمة الذي لا يستنكف من سؤال الخلق ولا يرى الاستبدال و يكتفي بيسير من العلم، ولا يتوق الي احوال العارفين فذاك لا يؤلمه فقد شيء و يرى ما وجد هو الغاية فهو يفرح فرح الاطفال بالزخارف، فما اهون الامر عليه، إنه البلاء على العارف ذى الهمة العالية، الذي تدعوه همته الي الاضداد للتزيد من مقام الكمال وتقصير خطاه عن مدارك مقصوده فياله من مال ينفذ في طريقه زاد الصابرين، ولولا حالات غفلة تعترى هذا المبتلي يعيش بها لكان دوام ملاحظته للمقامات يعمي بصره، واجتهاده في السلوك يحفي قدمه لكان ملاحظات الامداد له تارة ببلوغ بعض مراده وتارة بالغفلة عما قصد، وهذا كلام عزيز لا يفهمه الا اربابه ولا يعلم كنهه الا أصحابه.

نصائح لطالب العلم الفقير

هيهات أن يجتمع الهم مع التلبس بأمور الدنيا خصوصا الشاب الفقير الذي قد ألف الفقر فانه إذا تزوج وليس له من الدنيا اهتم بالكسب أو بالطلب من الناس فتشتت همته، وجاء الأولاد فزاد الامر عليه، ولا يزال يرخص لنفسه فيما يحصل إلي أن يلتبس بالحرام ومن يفكر فهمته ما يأكل وماذلك، فأي قلب يحضر له، وأي هم يجتمع؟ هيهات والله، لا يجتمع الهم والعين تنظر الي الناس والسمع يسمع حديثهم، واللسان يخاطبهم، والقلب متوزع في تحصيل ما لا بد منه.

فان قال قائل: فكيف أصنع؟

قلت: إن وجدت ما يكفيك في الدنيا، أو معيشة تكفك فاقنع، وانفرد في خلوة عن الخلق مهما قدرت، وان تزوجت فبفقيرة تقنع باليسير، وتصبر انت على صورتها وفقرها، ولاتترك نفسك تطمح إلي من تحتاج إلى نفقته فان رزقت إمرأة صالحة جمعت همتك، وان لم تقدر فمعالجة الصبر أصلح لك من المخاطرة.

على طالب العلم كسب المعاش

رأيت جماعة ممن أفنى أوائل عمره وريعان شبابه في طلب العلم، صَبَر على أنواع الأذى، وهجر فنون الراحات، أنفة من الجهل ورذيلته، وطلبا للعلم وفضيلته، فلما نال منه طرفاً دفعه عن مراتب أرباب الدنيا ومن لاعلم له إلا بالعاجل، ضاق به معاشه، فسافر في البلاد يطلب من الأراذل، و يتواضع للسّفْله وأهل الدناءة (١) والمُكاّس (٢) وغيرهم، فخاطبت بعضهم وقلت: ويحك أين تلك الأنفة من الجهل التي سهرت لأجلها، وأظمأت نهارك بسببها، فلما ارتفعت وانتفعت عدتَ إلى أسفل سافلين؟

أفما بقي عندك ذرة من الأنفة تنبو بها عن مقامات الأراذل،

---

(١) المكاس جمع مكس وهو مايسمى اليوم بالضرائب وهي ليست من الاسلام في شيء إنما هي من المظالم واخذ اموال الناس بالباطل.

(٢) وماأشبه الليلة بالبارحة فالناظر لأحوال المسلمين اليوم يجد أن أهل الخسة والدناءة هم المتصدرون لكل شيء فيضطر عندها المسلم أن يتواضع ويحترم أولئك، فلا حول ولا قوة الا بالله.

ولا معك من يسير بك عن مناخ الهوى، ولا حصلت بالعلم قوة تجذب بها زمام النفس عن مراعى السوء؟

غير أنه تبين لي أن سهرك وتعبك كأنه كان لنيل الدنيا، ثم إني أراك تزعم أنك تريد شيئا من الدنيا تستعين به على طلب العلم.

فأعلم أن التفاتك إلي نوع كسب تستغني به عن الاراذل أفضل من التزيد في علمك، فلو عرفت ماينقص به لم تر ما قد عزمت عليه زيادة مما يحتوى عليه هذا العزم: السفر الذي كله مخاطر بالنفس، و بذل الوجه الذى طالما صين لمن لا يصلح التفات مثلك إلى مثله، و بعيد أن تقنع بعد شروعك في هذا الأمر بقدر الكفاف، وقد علمت ما في السؤال بعد الكفاف من الاثم، وأبعد منه أن تقدر على الورع في المأخوذ، ومن لك بالسلامة والرجوع إلى الوطن، وكم رمى قفر في بواديه من هالك، ثم ما يحصله يفنى و يبقى منه ما أعطى وعيب المتقين إياك واقتداء الجاهلين بك و يكفيك انك عدت على ما علمت من ذم الدنيا بشينه اذ فعلت ما يناقضه، خصوصاً وقد مر أكثر العمر، ومن أحسن فيما مضى يحسن فيما بقى.

حاجة طالب العلم الى المعاش

رأيت جمهور العلماء يشغلهم طلبهم العلم في زمن الصبا عن المعاش، فيحتاجون إلى مالابد منه، فلا يصلهم من بيت المال شيء،

---

(١) أي يكون له مورد يتعيش منه حتى يفضل على غيره ولا يفضل غيره عليه. ومن أقبح النقص أن يطلب الغاية في المال و ينسى الغاية في العلم.

ولا من صلات الاخوان ما يكفى، فيحتاجون إلى التعرض بالاذلال، فلم أر في ذلك من الحكمة إلا سببين، أحدهما: قمع اعجابهم بهذا الاذلال، والثاني: نفع أولئك بثوابهم ثم أمنت الفكر فتلمحت نكتة لطيفة، وهو أن النفس الأبية إذا رأت حال الدنيا كذلك لم تساكنها بالقلب، ونَبَتْ عنها العزم، ورأت أقرب الاشياء شبها بها مزبلةً عليها الكلاب، أو غائطاً يؤتى لضرورة، فاذا نزل الموت بالرحلة عن مثل هذه الدار، لم يكن للقلب بها متعلق متمكن فتهون حينئذ.

وصايا لطالب العلم

ينبغى لطالب العلم ان يكون جّل همه مصروفاً إلى الحفظ، والاعادة، فلو صح صرف الزمان الى ذلك كان الأولى غير أن البدن مطية، واعداد السير مظنة الانقطاع.

ولما كانت القوى تكلّ فتحتاج إلى تجديد، وكان النّسْخ والمطالعة والتصنيف لابد منه، مع أن المهم الحفظ، وجب تقسيم الزمان على الأمرين، فيكون الحفظ في طرفى النهار وطرفى الليل، و يوزع الباقى بين عمل النسخ والمطالعة، وبين راحة للبدن وأخذ لحظة، ولا ينبغي أن يقع الغبن بين الشركاء فانه متى أخذ أحدهم فوق حقه أثر الغبن و بات أثره.

وأن النفس لتهرب إلى النسخ والمطالعة والتصنيف عن الاعادة والتكرار، لأن ذلك أشهى وأخف عليها. فيخدر الركب من إهمال الناقة، ولا يجوز له أن يجعل عليها مالا تطيق.

ومن العدل والانصاف يتأتى كل مراد.

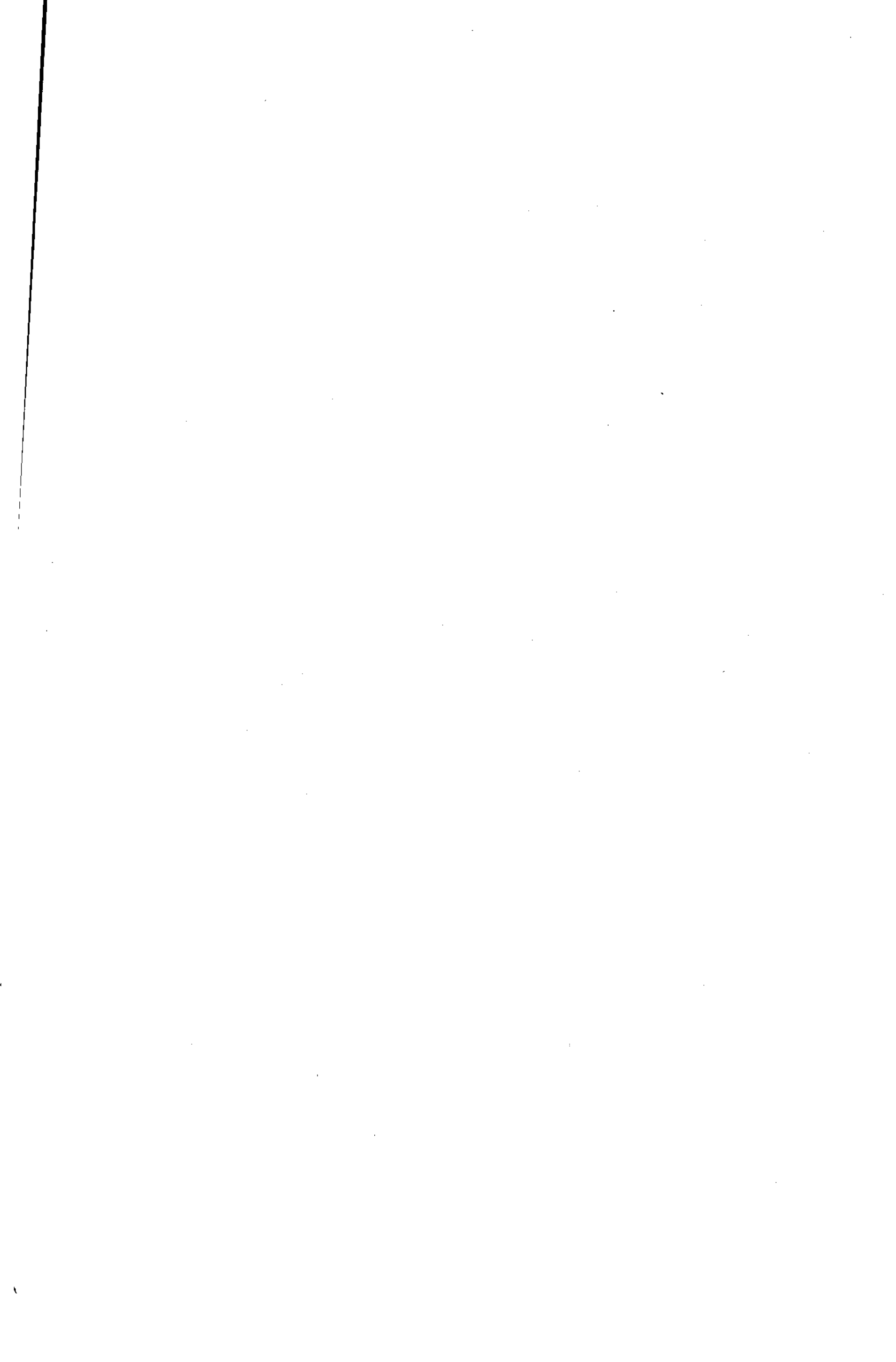
ومن إنحرف عن الجادة طالت طريقه. ومن طوى منازل
منزل أوشك أن يفوته ماجَدّ لأجله، على أن الانسان إلى التحريض أح
لأن الفتور أكثر من الجد.

وبعد فاللازم في العلم طلب المهم، فرب صاحب حديث حف
مثلا لحديث: من أتى الجمعة فليغتسل (١) عشرين طريقاً، والحديث
ثبت من طريق واحد، فشغله ذلك عن معرفة آداب الغسل (٢) والع
أقصر وأنفس من أن يفرط منه في نفس، وكفى بالعقل مرشد ا
الصواب من عضده التوفيق.

---

(١) رواه البخارى ومسلم وأحمد والترمذي وابن ماجه ١/٣٤٦ عن ابن عمر.

(٢) قد صدق والله المؤلف رحمه الله فهم الكثير إلا من رحم الله اليوم البحث في طرق الاحاديث وجمعها وأما فقهها فلا يعرفون الى ذلك سبيلا.



رابعـــــــــا :

* فائدة القناعة للعالم والزاهد .
* على العالم والزاهد القناعة بالكفاف .
* على العالم طلب الغنى .
* على العالم ان لا يذل لأرباب الدنيا .
* مخالطة العلماء للسلاطين وأضرارها .
* علماء الدنيا والاخرة .
* عصيـــــان العلمـــــاء .
* نصيحة للعلماء والزهاد .

فائدة القناعة للعالم الزاهد

لاعيش في الدنيا إلا للقنوع باليسير، فانه كلما زاد الحرص على فضول العيش زاد الهم وتشتت القلب، واستعبد العبد. وأما القنوع فلا يحتاج إلى مخالطة من فوقه ولا يبالي بمن هو مثله، إذ عنده ماعنده وأن أقواماً لم يقنعوا وطلبوا لذيذ العيش فأزروا بدينهم وزلوا لغيرهم، وخصوصاً أرباب العلم فانهم ترددوا إلى الأمراء فاستعبدوهم، ورواو المنكرات فلم يقدروا على انكارها، وربما مدحوا الظالم إتقاء لشره، ومن اقبح الناس مالا من تعرض للقضاء والشهادة ولقد كانتا مرتبتين حسنتين، وكان عبد الحميد القاضي لا يحابى، فبعث إلى المعتضد، وقال له: قد استأجرت وقوفاً فأد أجرتها ففعل، وقال له المعتضد: قد مات فلان ولنا عليه مال، فقال: أنت تذكر لما وليتني قلت له: قد أخرجت هذا الأمر من عنقي ووضعته في عنقك ولاأقبل هذا إلا بشاهدين.

وكذلك كان الشهود، دخل جماعة على بعض الخلفاء فقال الخادم: اشهدوا على مولانا بكذا وكذا فشهدوا، فتقدم المجذوعى إلى الستر فقال: ياأمير المؤمنين أشهد عليك بما في هذا الكتاب. فقال: أشهد قال: أنه لايكفى في ذلك، لا أشهد حتى تقول: نعم، قال: نعم.

فأما في زماننا فتغيرت تلك القواعد من الكل، خصوصاً من يتقرب بالمال ليستشهد فتراه يُسحب ليشهد على مالا يرى. (١)

---

(١) ومانقول نحن اليوم اذا كان ابن الجوزى رحمه الله يقول ذلك من تسعمائة سنة فحالنا حسرة والم بغياب شريعة الله الواحد القهار وتفرد شريعة الغاب المتعددة الاهواء.

قال لى أبو المعالى بن شافع: كنت أحمل إلى بعض أهل السواد وهو محبوس وأشهد عليه، وأعلم أنه لولا انه مكره لجاء إليّ بقدميه، وأنا أستغفر الله من ذلك.

وليس للشهود راية فيحملون ذلك لأجلها، وإنما الذى حصل جر الطيلسان، وطرق الباب، وقول المعِّرف: حرس الله نعمتك شهادة.

ولما قيل لابراهيم النخعى (١): تكون قاضياً لبس قميصاً أحمر وجلس في السوق، فقالوا: هذا لايصلح. ودخل بعض الكبار على الرشيد وقد أحضره ليوليه القضاء فسلم وقال له: كيف أنت وكيف الصبيان؟ فقيل: هذا مجنون، فيالله جنون هو العقل، وما أظن الايمان بالآخرة إلا متزلزلا في أكثر القلوب، نسأل الله سبحان سلامة للدين فانه قادر.

على العالم والزاهد القناعة بالكفاف

ليس في الدنيا عيش إلا لعالم أو زاهد. بلى، قد يقع في صفاء حالهما كدر، وهو أن العالم يشتغل بالعلم أو بالانقطاع عن الكسب، وقد يكون له عائلة، فربما تعرضّ بالسلطان ففسد حاله، وكذلك الزاهد. فينبغي للعالم والعابد أن يحوكا في معاش كنسخ بأجرة، أو عمل الخوص(٢)

---

(١) ابراهيم النخعى: هو ابراهيم بن يزيد بن عمران، فقيه الكوفة ومفتيها هو والشعبي في زمانهما، قال الاعمش، كان صيرفياً في الحديث، وقال الشعبي: ماترك بعده أعلم منه ولا الحسن ولا ابن سيرين والا من أهل الكوفة ولا البصرة ولا الحجاز ولا الشام مات سنة ست وتسعين عت تسع وأربعين وثمان وطبقات ابن سعد ١٨٨/٦ وميزان الاعتدال ٧٤/١.

(٢) الخوص بالعامية : الحصير وماصنع بالعيدان.

أوإن فتح بشيء وأقتنع باليسير، فلا يستعبده أحد. كما كان أحمد بن حنبل له أجرة (١) لعلها لاتبلغ ديناراً يتقوت بها. ومتى لم يقنع أفسدت مخالطة السلاطين والعوام دينه.

وفي الناس من يريد التوسع في المطاعم. ومنهم من لا يوافقه خشن العيش.

وهيهات أن يصح الدين مع تحصيل اللذات. واذا قنع العالم والزاهد بما يكفي، لم يتبذل للسلطان ولم يستخدم بالتردد إلى بابة، ولم يحتج الزاهد إلى تصنع، والعيش اللذيذ للمنقطع الذي لا يتبذل به ولا يحمل منه.

على العالم طلب الغنى

حضرنا بعض أفدية أرباب الاموال، فرأيت العلماء أذل الناس

---

(١) أحمد بن حنبل هو: أحمد بن محمد بن حنبل بن هلال بن أسد الشيباني أبوعبد الله المروزي ثم البغدادى الامام الشهيرصاحب «المسند»، «والزهد» وغيرذلك خرج من مرو حملاً، وولد ببغداد في ربيع الاول سنة اربع وستين ومائة ونشأ بها وطلب الحديث سنة تسع وسبعين ومائة، وطاف البلاد، ودخل الكوفة والبصرة والحجاز واليمن والشام الجزيرة في طلب العلم، وكان من كبار حفاظ الائمة ومن احبار هذه الامة، قال ابن مهدي: هذا اعلم الناس بحديث سفيان الثوري وقال عبد الرزاق: أما يحيى معين فما رأيت مثله ولا اعلم منه من غيرسرد وأما ابن المديني فحافظ سرد، وأما أحمد فما رأيت افقه منه ولا أروع وقال هلال بن العلاء الرقي: من الله على هذه الامة بأربعة في زمانهم بأحمد بن حنبل ثبت في المحنة ولولا ذلك لكفر الناس. تاريخ بغداد ٤١٢/٤ ترجمة مطولة وطبقات الحفاظ ص ١٨٦ وتهذيب التهذيب ٧٢/١ وطبقات ابن سعد ٩٢/٧ والرسالة المستطرفة ص ١٨.

عندهم، فالعلماء يتواضعون لهم، و يذلون لموضع طمعهم فيهم وهم لا يحفلون بهم لما يعلمونه من احتياجهم إليهم، فرأيت هذا عيباً في الفريقين، أما في أهل الدنيا فوجه العيب أنهم كانوا ينبغي لهم تعظيم العلم، ولكن لجهلهم بقدِرِه فاتهم وآثروا عليه كسب الأموال، فلا ينبغى أن يطلب منهم تعظيم مالا يعرفون ولا يعلمون قدره، وانما أعود باللوم على العلماء وأقول: ينبغى لكم أن تصونوا أنفسكم التي شرفت بالعلم عن الذل للانذال، وان كنتم في غنى عنهم كان الذل لهم والطلب منهم مراماً عليكم، وان كنتم في كفاف فلم لم تؤثروا التنزه عن الذل بالعفة عن الحطام الفانى الحاصل بالذلة، إلا انه يتخيل لي من هذا الأمر إنى علمت قلة صبر النفس على الكفاف والعزوف عن الفضول، فان وجه ذلك منها وفي وقت لم يوجد على الدوام، فالأولى للعالم أن يجتهد في طلب الغنى و يبالغ في الكسب، وان ضاع بذلك عليه الكثير من زمان طلب العلم، فانه يصون بعَرَضه عِرْضه.

وقد كان سعيد بن المسيب يتجر في الزيت وخلف مالا، وخلف سفيان الثورى مالا وقال: لولاك لتمندلوا (١)، وقد سبق في كتابى هذا في بعض الفصول شرف المال، ومن كان من الصحابة العلماء يقينه، والسر في فعلهم ذلك، وحَثّي طالبي العلم على ذلك ما بينته من أن النفس لا تثبت على التعفف، ولا تصبر على دوام التزهد، وكم قد رأينا من شخص قويت عزيمته على طلب الآخرة فأخرج ما في

(١) أي اتخذوني مسحة «منديلاً» أو لعلها في عامية ذلك الزمان، معنى اخر يريده المؤلف ــ ذكره الطنطاوي في صيد الخاطر.

يديه، ثم ضعفت فعاد يكتسب من أقبح وجه، فالأولى إدخار المال والاستغناء عن الناس، فيخرج الطمع من القلب، و يصفو نشر العلم من شائبة ميل.

ومن تأمل أخبار الأخيار من الأحبار وجدّهم على هذه الطريقة، وإنما سلك طريق الترفه عن الكسب من لم يؤثر عنده بذل الدين والوجه، فطلب الراحة ونسي أنها في المعنى عناء، كما فعل جماعة من جهال المتصوفة في إخراج ما في أيديهم وادعاء التوكل، وما علموا أن الكسب لاينافى التوكل، وإنما طلبوا طريق الراحة وجعلوا التعرض للناس كسباً، وهذه طريقة مركبة من شيئين: أحدهما قلة الأنفة على العرض، الثاني: قلة العلم.

على العالم أن لايذل لأرباب الدنيا

رأيت عموم أرباب الأموال يستخدمون العلماء، يستذلونهم بشيء يسير يعطونهم من زكاة أموالهم فان كان لاحدهم ختمة قال: فلان ماحضر، وإن مرض قال: فلان ماتردد، وكل مُنته عليه شيء نزر يجب تسليمه الى مثله، وقد رضى العلماء بما يجب عليهم من صيانة العلم.

ودواؤه من جهتين: أحداهما القناعة باليسير، كما قيل: من رضى بالخل والبقل لم يستعبده أحد (١) والثاني: صرف بعض الزمان

---

(١) لقد صدق حقاً المؤلف رحمه الله فالنفس المسلمة نفس كريمة عزيزة عند الله تعالى فما بالك بالعلماء وطلبة العلم الذي يذبون عن سنة المصطفى عليه الصلاة والسلام =

المصروف في خدمة العلم إلى كسب الدنيا، فانه يكون سببا لاعزاز العلم، وذلك أفضل من صرف جميع الزمان في طلب العلم، مع احتمال هذا الذل.

ومن تأمل ماتأملته وكانت له أنفة، قدر قوته، واحتفظ بما معه، أوسعى في مكتسب يكفه، ومن لم يأنف من مثل هذه الاشياء لم يحظ من العلم الا بصورته دون معناه.

مخالطة العلماء للسلاطين وأضرارها

قدم علينا بعض الفقهاء من بلاد الأعاجم، وكان قاضياً ببلدة فرأيت على دابته الذهب ومعه أتوار (١) الفضة وأشياء كثيرة من المحرمات.

فقلت: أى شيء أفاد هذا العلم (٢) بل والله قد كثرت عليه الحجج،

= فكان حرى بهم أن لايهينوا أنفسهم لأرباب، الدنيا و يستذلونها و يبحثوا عن عمل ينزهون به النفس الكريمة حتى ترجع الى ربها راضية مرضية وبحكم الله راضية.

(١) جمع تور وهو اناء للشرب.

(٢) فلهذا ينبغى لأهل العلم أن يكونوا ابعد الناس عن الحرام والشبهات أو ما خالطهما، فاذا اهم تورعوا واتقوا الله اتبعتهم الناس وأتسوا بهم، فكان دروهم دوراً إيجابياً في المجتمع المسلم فسيرة علماء السلف في هذه المواطن حافلة بالخير والتقى فهذا سفيان بن عيينة يقول: لايصيب العبد حقيقة الامان حتي يجعل بينه وبين الحرام حاجزاً من الحلال وحتى يدع الاثم وماتشابه منه (عن ابن عمر انه قال: إنى لا أحب أن أدع بينى وبين الحرام سترة من الحلال ولا أحرمها أ كتاب الورع لأحمد بن حنبل ص ٣٠

وأكبر الأسباب قلة علم هؤلاء بسيرة السلف وما كان عليه رسول الله صلى الله عليه وسلم.

لا انهم يجهلون الجملة، ولكنهم يتشاغلون بعلم الخلاف، و يقصدون التقدم، ولا يقصدون سماع حديث ولا نظراً في سير السلف، ويخالطون السلاطين فيحتاجون إلى التزي بزيهم، فربما خطر لهم ان هذا قريب وأن لم يخطر لهم فالهوى غالب بلا صادّ، وربما خطر لهم: ان هذا يحتمل و يغفر في جانب تشاغلنا بالعلم.

ثم يرون العلماء يكرمونهم لنيل شيء من دنياهم، ولا ينكرون عليهم، ولقد رأيت من الذين ينتسبون الى العلم من يستصحب المردان، و يشترى المماليك، وما كان من يفعل هذا إلا من ينسى من الآخرة.

ورأيت من قد بلغ الثمانين من العلماء، وهو على هذه الحالة.

فالله الله يا من يريد حفظ دينه و يوقن بالآخرة، واياك والتأو يلات الفاسدة، والاهواء الغالبة، فانك ان ترخصت بالدخول في بعضها جرّك الأمر إلى الباقى، ولم تقدر على الخروج لموضع ألف الهوى، فأقبل بضحى، واقنع بالكسرة، وابعد عن أرباب الدنيا، فاذا اضجّ الهوى فدعه لهذا، وربما قال لك: «فالأمر الفلاني قريب» فلا تفعل، فانه يدعو إلى غيره و يصعب التلاقى، فالصبر على شظف العيش، والبعد عن أرباب الهوى، فما يتم دين إلا بذلك، ومتى وقع الترخص حمل إلى غيره، كالشاطىء الى اللجة، وإنما هو طعام دون طعام، ولباس دون لباس، ووجه أصبح من وجه، وإنما هى أيام يسيرة.

و يقول المؤلف: في موضع آخر: رأيت خلقا من العلماء والقُصّاص تضيق عليهم الدنيا فيفزعون إلى مخالطة السلاطين لينالوا من أموالهم، وهم يعلمون أن السلاطين لا يكادون يأخذون الدنيا من وجهها ولا يخرجونها في حقها، فان أكثرهم إذا حصل له خراج ينبغي أن يصرف إلى المصالح، وهبه لشاعر وربما كان معه جندى يصلح أن تكون مشاهرته عشرة دنانير فأعطاه عشرة الآف.

وربما غزا فأخذ ما ينبغي أن يقسم على الجيش فاصطفاه لنفسه، هذا غير ما يجرى من الظلم في المعاملات. وأول ما يجرى على ذاك العالم أنه قد حرم النفع بعلمه.

وقد رأى بعض الصالحين رجلا عالماً يخرج من دار يحى بن خالد البرمكى فقال: أعوذ بالله من علم لا ينفع، ألم ير المنكرات ولا ينكر؟ و يتناول من طعامهم الذي لا يكاد يحصل إلا بظلم فينطمس قلبه، ويحرم لذة المعاملة للحق سبحانه، ولا يقدر له أن يهتدى به أحد؟ بل ربما كان فعله سبباً لاضلال الناس في الاقتداء به.

فهو يؤذى نفسه و يؤذى أميره، لأنه يقول لولا إنني على صواب ما صحبني هذا وما أنكر علي، و يؤذي العوام تارة بأن يروا أن ما في الأمير صواب وأن الدخول والسكوت عن الانكار جائز، ويحبب إليهم الدنيا، ولا خير والله في سمعه من الدنيا ضيقت طريق الآخرة.

وأنا أفدى أقواماً صابروا عطش الدنيا في هجير الشهوات زمان العمر حتى رووا يوم الموت من شراب الرضى، و بقيت أذكارهم تُروى فتروي صدأ القلوب وتجلوا صداها.

وبقدر صعود الانسان في الدنيا تنزل مرتبته في الآخرة وقد صرح بهذا ابن عمر رضى الله عنهما فقال: والله لا ينال أحد من الدنيا شيئا إلا نقص من درجاته عند الله، وان كان عنده كريما، فالسعيد من اقتنع بالبلغة، فان الزمان أشرف من أن يضيع في طلب الدنيا، اللهم إلا أن يكون متورعاً في كسبه معيناً لنفسه عن الطمع قاصداً اعانة أهل الخير والصدقة على المحتاجين، فكسب هذا أصلح من بطالته، فأما الصعود الذى سببه مخالطة السلاطين فبعيد أن يسلم معه الدين فان وقعت سلامته ظاهراً فالعاقبة خطره ومن اشرف وأطيب عيشاً من منفرد لايخالط السلاطين ولا يبالى أطاب مطعمه أم لم يطب، فانه لا يخلو من كسرة وقعب (١) ماء، وهوسليم من أن يقال له كلمة تؤذيه، أو يعيبه الشرع حين دخوله عليهم أو الخلق.

في علماء الدنيا والاخرة

تأملت التحاسد بين العلماء، فرأيت منشأة حب الدنيا، فان علماء الآخرة يتوادون ولايتحاسدون، كما قال عز وجل «ولا يجدون في صدورهم حاجة مما أوتوا» (٢) وقال تعالى؛ «والذين جاءوا من بعدهم يقولون ربنا اغفر لنا ولاخواننا الذين سبقونا بالايمان ولا تجعل في قلوبنا غلا للذين امنوا» (٣) وقد كان أبو الدرداء يدعو كل ليلة لجماعة من

(١) العقب : دورق الماء

(٢) سورة الحشر آية: ٩ . يقول الحسن: ليس من ولد أدم أحد الا وقد خلق معه الحسد، فمن لم يجاوز ذلك بقول ولا فعل لم يتبعه شيء.

(٣) سورةالحشرآية: ١٠٠.

اخوانه، وقال الامام أحمد بن حنبل لولد الشافعى «أبوك من الستة الذين أدعوا لهم كل ليلة وقت السحر».

والأمر الفارق بين الفئتين: أن علماء الدنيا ينظرون إلى الرياسة بها، ويحبون كثرة الجمع والثناء، وعلماء الآخرة، بمعزل من ايثار ذلك، وقد كانوا يتخوفونه، و يرحمون من بلى به.

وكان النخعى لا يستند الى سارية، وقال علقمة: (١) «واكره ان يوطأ عقبى» (٢) وكان بعضهم اذا جلس اليه أكثر من أربعة قام عنهم، وكانوا يتدافعون الفتوى ويحبون الخمول، ومثل القوم كمثل راكب البحر، وقد خب (٣) فعنده شغل إلى أن يوقن بالنجاة وانما كان بعضهم يدعوا لبعض، و يستفيد منه، لأنهم ركب تصاحبوا فتوادوا، فالأيام والليالي مراحلهم إلى سفر الجنة.

عصيان العلماء

تألمت إقدام العلماء بالعقاب (٤) على شهوات النفس المنهي

---

(١) علقمة بن قيس بن عبد الله بن مالك النخعى أو شبل الكوفى قال الشعبي كان الفقاء بعد أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم بالكوفة في أصحاب عبد الله بن مسعود، وهؤلاء علقمة وعبيدة وشريح ومسروق ولد في حياة النبى صلى الله عليه وسلم ومات سنة احدى وستين وقيل اثنتين وقيل ثلاث وقيل خمس وقيل سنة اثنتين وسبعين وثلاث وسبعين ــ طبقات الحفاظ ص ١٢ تاريخ بغداد ٢٩٦/١٢ تذكرة الحفاظ ٤٨/١ ــ تهذيب التهذيب ٢٧٦/٧

(٢) أي يمشي الناس خلفي

(٣) أي اضطرب وهاج.

(٤) الجار والمجرور بـ (العلماء) أي اقدام العالمين بعقاب الشهوة.

عنها، فرأيتها مرتبة تزاحم الكفر لولا تلوّح معنى وهو أن الناس عند مواقعة المحظور ينقسمون، فمنهم جاهل بالمحظور أنه المحظور، فهذا نوع عذر، ومنهم من يظن المحظور مكروهاً لا محرماً فهذا قريب من الأول، وربما دخل في هذا القسم آدم عليه السلام، ومنهم من يتأول فيغلط، كما يقال إن آدم عليه الصلاة والسلام نهى عن الشجرة بعينها، فأكل من جنسها لا من عينها (١) ومنهم من يعلم التحريم، غير أن غلبات الشهوة أنسته تذكر ذلك فشغله ما رأى عما يعلم، ولهذا لا يذكر السارق القطع بل يغيب بكليته في نيل الحظ، ولا يذكر راكب الفاحشة الفضيحة ولا الحد، لأن ما يرى يذهله عما يعلم. ومنهم من يعلم الخطر و يذكره، غير أن الأخذ بالحزم أولى بالعاقل، كيف وقد علم أن هذا الملك الحكيم قطع اليد في ربع دينار، (٢) وهدم بناء الجسم المحكم بالرجم بالحجارة، لالتذاذ ساعة، وخسف، ومسخ، وأفرق.

نصيحة للعلماء والزهاد

يا قوم قد علمتم أن الأعمال بالنيات. وقد فهمتم قوله تعالى «ألا لله الدين الخالص» (٣) وقد سمعتم عن السلف انهم كانوا

---

(١) يعني: ومنهم من يعلم الخطر و يذكر غيره أنه يغتر بالحلم والعفو، وهذا وان كان صحيحاً غير أن الأخذ بالحزم أكمل. ذكره طنطاوى في صيد الخاطر.

(٢) كما جاء في الحديث عن عائشة رضي الله عنها (لا تقطع يد السارق، الا في ربع دينار فصاعدا). رواه مسلم ١٣١٢/٣، ١٣١٣ والنسائى وابن ماجة ٨٦٢/٢ (فصاعداً) اى فما زاد على الربع صاعداً مالا نهاية له. فهو حال مقدرة.

(٣) الزمر: آية ٣.

لا يعملون ولا يقولون حتى تتقدم النية وتصح (١)، ايذهب زمانكم يا فقهاء في الجدل والصياح؟ وترتفع أصواتكم عند اجتماع العوام تقصدون المغالبة؟ أو ما سمعتم: من طلب العلم ليباهى به العلماء، أو ليماري به السفهاء، أو ليصرف به وجوه الناس اليه، لم يرح رائحة الجنة؟ (٢) ثم يقدم أحدكم على الفتوى وليس من أهلها، وقد كان السلف يتدافعونها.

و يا معشر المتزهدين انه يعلم السر وأخفى أتظهرون الفقر في لباسكم وأنتم تستوفون شهوات النفوس؟

وتظهرون التخاشع والبكاء في الجلوات دون الخلوات؟ كان ابن سيرين يضحك و يقهقه فاذا خلا بكى أكثر الليل.

وقال سفيان لصاحبه:
ما أوقحك تصلي والناس يرونك.

---

(١) وكما جاء في الحديث الصحيح الذي رواه البخارى،، إنما الاعمال بالنيات.....،، فلا يصح العمل إلا بالنية الصالحة المخلص بها وجه الله ولا تصح النية الا بالعمل الصالح وفق الكتاب والسنة. ولشيخ الاسلام ابن تيمية رسالة بذلك وللسيوطي رسالة مخطوطة كذلك.

(٢) رواه الترمزذى عن كعب بن مالك وابن ماجة عن ابن عمر ٩٣/١ وهو حسن. وجاء في صحيح الترغيب والترهيب لمحدث الشام محمد ناصر الالباني ٤٦/١، ٤٧ بأسانيد صحيحة. وفي لفظ آخر لابن ماجة ٩٣/١ عن أبي هريرة،، من تعلم العلم ليباهي به العلماء، أو ليمارى به السفهاء، أو ليصرف به وجوه الناس اليه، أدخله الله جهنم،، وجاء في تخريج «إقتضاء العلم العمل» ١٠٢ بسند صحيح.

أفدى ظبـاء فلاة ماعرفن بها   مضغ الكلام ولا صبغَ الحواجيب

آه للمرائي من يوم (وحصل ما في الصدور) (١) وهي النيات.

فأفيقوا من سكركم، وتوبوا من زللكم، واستقيموا على الجادة، ان تقول نفس ياحسرتاه على ما فرطت في جنب الله (٢)

---

(١) سورة العاديات: آية ١٠.

(٢) سورة الزمر: آية ٥٦.

خامســــــا :

* علم الورق وعلم الخرق (الصوفية) .
* تخليط العلماء والزهـــاد .
* القدماء أصحاب همم علية لكثرة مصنفاتهم .
* الفقه أفضـل العلـــــوم .
* حفظ الفروع وتصنيع الأصول .

علم الورق وعلم الخرق (١)

ليس في الوجود شيء أشرف من العلم، كيف لا وهو الدليل، فاذا عدم وقع الضلال، وإن من خفى مكائد الشيطان أن يزين في نفس الانسان التعبد ليشغله من أفضل التعبد وهو العلم، حتى انه زين لجماعة من القدماء أنهم دفنوا كتبهم ورموها في البحر، وهذا قد ورد عن جماعة، وأحسن ظني بهم أن أقول: كان فيها شيء من رأيهم وكلامهم فما أحبوا إنتشاره، والا فمتى كان فيها علم مفيد صحيح لا يخاف عواقبه، كان رميها إضاعة للمال لا يحل، وقد دنت حيلة إبليس إلى جماعة من المتصوفة حتى منعوا من حمل المحابر تلامذتهم، حتى قال جعفر الخلدى: لو تركني الصوفية جئتكم باسناد الدنيا. كتبت مجلسا عن أبى العباس الدورى فلقينى بعض الصوفية فقال: دع علم الورق، وعليك بعلم الخرق، ورأيت محبرة مع الصوفية، فقال له صوفي: استر عورتك.

وقد أنشدوا للشبلى:

إذا طالبونى بعلم الورق   برزت عليهم بعلم الخرق

---

(١) علم الورق هو التأليف وعلم الخرق هو لبس الصوف والابتعاد عن الامر بالمعروف والنهى عن المنكر، وهو الابتعاد عن الناس والمجتمعات والسكنى في البرارى والكهوف كالحيوانات وهذا مايفعله الصوفية المنهزمون وهومن تلبيس ابليس كما ذكر ابن الجوزى والنبى صلى الله عليه وسلم يحث المؤمن على مخالطة الناس بقوله «المؤمن الذي يخالط الناس و يصبر على أذاهم خير من المؤمن الذي لايخالط الناس ولايصبر على أذاهم».

وهذا من خفى حيل إبليس، ولقد صدق عليهم إبليس ظنه، وانما فعل وزينه عندهم لسببين: أحدهما: انه ارادهم يمشون في الظلمة، والثاني: ان تصفح العلم كل يوم يزيد في العالم، و يكشف له ما كان خفى عنه، و يقوى ايمانه، ومعرفته، و يريه عيب كثير من مسالكة، اذا تصفح منهاج الرسول صلى الله عليه وسلم والصحابة، فأراد إبليس سد تلك الطرق، بأخفى حيلة، فأظهر أن المقصود العمل لا العلم لنفسه، وخفى على المخدوع أن العلم عمل وأى عمل، فأحذر من هذه الخديعة الخفية، فان العلم هو الأصل الأعظم، والفوز الأكبر، وربما كان تقليب الأوراق أفضل من الصوم والصلاة والحج والغزو، وكم من مُعرض عن العلم يخوض في عذاب من الهوى في تعبده، و يضيع كثيراً من الفرض بالنفل، و يشتغل بما يزعمه الافضل عن الواجب، ولو كانت عنده شعلة من نور شعلة من نور العلم لاهتدى، فتأمل ما ذكرت لك ترشد إن شاء الله تعالى.

تخليط العلماء والزهاد

أضر ما على المريض التخليط، وما من أحد إلا وهو مريض بالهوى، والحمية عنه رأس الدواء، والتخليط يديم المرض، وتخليط أرباب الآخرة على ضربين:

أحدهما: تخليط العلماء، وهو إما لمخالطة الاضداد كالسلاطين فانهم يضعفون قوى يقينهم كلما زادت المخالطة، و يقدحون دليلهم عند المريدين، فاني إذا رأيت طبيباً يخلط ويحميني شككت أو وقفت.

والثاني: تخليط الزهاد، وقد يكون بمخالطة أرباب الدنيا، وقد يكون بحفظ الناموس في إظهار التخشع، لاجتلاب محبة العوام فالله الله فان ناقد الجزاء بصير، والاخلاص في الباطن والصدق في القلب، ونعم طريق السلامة ستر الحال.

القدماء أصحاب هم عليه لكثرة مصنفاتهم

كانت همم القدماء من العلماء عليه، تدل عليها تصانيفهم التي هي زبدة اعمارهم إلا أن أكثر تصانيفهم دثرت، لأن همم الطلاب ضعفت فصاروا يطلبون المختصرات، ولاينشطون للمطولات (١)، ثم اقتصروا على مايدرسون به من بعضها، فدثرت الكتب ولم تنسخ، فسبيل طالب الكمال في طلب العلم الاطلاع على الكتب التي قد تخلف من المصنفات من المطالعة فانه يرى من علوم القوم وعلومهم مايشحذ خاطره، ويحرك عزيمته للجد، ومايخلو كتاب من فائدة، واعوذ بالله من سيرة هؤلاء الذين نعاشرهم، لانرى فيهم ذا همة عالية فيقتدى بها المبتدى ولاصاحب ورع فيستفيد منه الزاهد.

فالله الله ليكم بملاحظة سير السلف، ومطالعة تصانيفهم وأخبارهم، فالاستنكار من مطالعة كتبهم رو ية لهم كما قال:

فاتنى أن أرى الديار بطرفي　　　فلعلي أرى الديار بسمعي (٢)

---

(١) المختصرات هى ماكتبه الفقيه كأبي حنيفة والشافعي ومما عرف ودرسه والمطولات تشمل فقه الأئمة مثل كتابة المغنى لابن قدامه والمجموع للنووى والفتاوى لابن تيمية.

(٢) للشريف الرضى، انظر ترجمته في كتاب «رجال من التاريخ» للطنطاوي.

واني أخبر عن حالي، ماأشبع من مطالعة الكتب، وإذا رأيت كتابا لم أره فكأنني وقعت على كنز ولقد نظرت في ثبت الكتب الموقوفة في المدرسة النظامية(١) فاذا به يحتوي على نحو ستة الآف مجلد. وفي ثبت كتب أبي حنيفة وكتب الحميدي(٢) وكتب شيخنا عبد الوهاب(٣)، وابن نصار محمد بن الخشاب(٤) وكانت أحمالا وغيرذلك من كل كتاب أقدر عليه، ولو قلت: اني طالعت عشرين ألف مجلد كان أكثر وأنا في الطلب، فاستفدت بالنظر فيها من ملاحظة سير القوم، وقدر هممهم وحفظهم وعباداتهم وغرائب علومهم، مالا يعرفه من لم يطالع فصرت أستزرى ما الناس فيه، واحتقر همم الطلاب، ولله الحمد.

الفقه أفضل العلوم

أعظم دليل على فضيلة الشيء النظر الى ثمرته، ومن تأمل ثمرة الفقه علم أنه أفضل العلوم، فان أرباب المذاهب فاقوا بالفقه الخلائق أبداً، وان كان في زمن أحدهم من هو أعلم منه بالقرآن أو الحديث أو باللغة.

وأعتبر هذا بأهل زماننا، فأنك ترى الشاب يعرف مسائل

---

(١) المدرسة النظامية في بغداد قديما.

(٢) الحميدي هو: الحافظ الكبير ابى بكر عبد الله بن الزبير الحميدي ــ متوفى سنة ٢١٩.

(٣) عبد الوهاب الأنماطي: محدث بغداد في عصره المتوفي سنة ٥٣٨.

(٤) عبد الله بن أحمد من علماء العربية وقف مكتبته على طلبة العلم ــ توفى سنة ٥٦٧ في بغداد

الخلاف الظاهرة فيستغني، و يعرف من حكم الله تعالى في الحوادث مالا يعرفه النحرير من باقي العلماء، وكم رأينا مبرزاً في علم القرآن أو في الحديث أو في التفسير أو في اللغة لا يعرف مع الشيخوخة معظم أحكام الشرع، وربما جهل علم ماينو يه في صلا ته.

على أنه ينبغي للفقيه ألا يكون أجنبياً عن باقي العلوم، فانه لا يكون فقيهاً، بل يأخذ من كل علم بحظ، ثم يتوفر على الفقه فانه عز الدنيا والآخرة (١)

حفظ الفروع وتضييع الأصول

رأيت كثيراً من الناس يتحرزون من رشاش نجاسة(٢) ولا يتحاشون من غيبة (٣) و يكثرون من الصدقة ولا يبالون بمعاملات الربا، و يتهجدون بالليل و يؤخرون الفريضة عن الوقت (٤) في أشياء

---

(١) قد ذكر المؤلف رحمة الله فائدة الفقه وأنه رأس العلوم و بحرها في الفصول السابقة وأكثر منها.

(٢) أى نجاسة الرشاش عند البول لقوله عليه السلام في حديث إبن عباس رضى الله عنهما من رواية مسلم ٢٤٠/١ قال: مر رسول الله عليه وسلم على قبرين فقال، أما انهما ليعذبان ومايعذبان في كبير، أما أحدهما فكان يمشي بالنميمة وأما الآخر فكان لا يستتر من بوله قال: فدعا بعسيب (جريد) رطب فشقه باثنين، ثم فرس على هذا واحدا وعلى هذا واحداً ثم قال: ... «لعله أن يخفف عنهما مالم ييبسا»

(٣) أي غيبة الناس ــ انظر كتاب رفع الريبة للشوكانى فان فيه الأسس التى ينجو بها الانسان من هذه الآفة.

(٤) وماأكثر هذه الاصناف في هذه الأ يام.

يطول عدّها من حفظ فروع وتضييع أصول، فبحثت عن سبب ذلك، فوجدته من شيئين:

أحدهما: العـــــــادة.

والثاني: غلبة الهوى في تحصيل المطلوب، فانه قد يغلب فلا يترك سمعاً ولا بصراً.

ومن هذا القبيل إن أخوة يوسف قالوا حين سمعوا صوت المنادى «إنكم لسارقون» لقد علمتهم ما جئنا لنفسد في الأرض وما كنا سارقين (١) «فجاء في التفسير أنهم لما دخلوا مصر كموا أفواه إبلهم لئلا تتناول ما ليس لهم، فكأنهم قالوا: قد رأيتهم ما صنعنا بأبلنا فكيف نسرق؟ ونَسُوا هم تفاوت ما بين الورع واختطاف أكلة لا يملكونها، و بين إلقاء يوسف عليه السلام في الجب و بيعه بثمن بخس.

وفي الناس من يطيع في صغار الأمور دون كبارها، وفيما كُلْفَتُهُ عليه خفيفة أو معتادة وفيما لا ينقص شيئا من عادته في مطعم وملبس.

نرى أقواماً يأخذون بالربا و يقول أحدهم: كيف يراني عدوي بعين إني بعت دارى، أو تغير ملبوسي، ومركوبى! ونرى أقواماً يوسوسون في الطهارة، و يستعملون الكثير(٢) ولا يتحاشون من غيبة وأقواماً

---

(١) سورة يوسف آية : ٧٣.

(٢) للمؤلف كتاب بين فيه كيفية مداخل الشيطان للانسان وأسماه (تلبيس إبليس) ننصح بقراءته.

يستعملون التأويلات الفاسدة في تحصيل أغراضهم مع علمهم أنها لا تجوز، حتى إني رأيت رجلا من أهل الخير والتعبد أعطاه رجل مالاً ليبني به مسجداً، فأخذه لنفسه وأنفق عوض الصحيح قراضة، فاحتضر قال لذلك الرجل: اجعلني في حل فاني فعلت كذا وكذا ونرى أقواماً يتركون الذنوب لبعدهم عنها، فقد ألفوا الترك واذا قربوا منها لم يتمالكوا (١) وفى الناس من هذه الفنون عجائب يطول ذكرها.

وقد علمنا صحته وأن خلقاً من علماء اليهود كانوا يحملون ثقل التعبد في دينهم، فلما جاء الاسلام وعرفوا صحته لم يطيقوا مقاومة أهوائهم في محور رياستهم وكذلك قيصر فانه عرف رسول الله صلى الله عليه وسلم بالدليل ثم لم يقدر على مقاومة هواه وترك ملكه، فالله الله في تضييع الأصول، ومن اهمال سرج الهوى فانه ان أهملت ماشية نفشت في زروع التقى، وما مثل الهوى الا كسبُع في عنقه سلسلة فان استوثق منه ضابطه كفه، وربما لاحت له شهواته الغالبة عليه فلم تقاومها السلسلة فأفلت.

على أن من الناس من يكف هواه بسلسلة، ومنهم من يكفه بخيط، فينبغي للعاقل أن يحذر شياطين الهوى، وان يكون بصيراً بما يقوى عليه من اعدائه وبمن يقوى عليه.

---

(١) لذلك كان أول ما ينبغي للمسلم الابتعاد عن مواطن الفتنة، وأسباب الاغراء، وبذلك يستريح قلبه في الدنيا، و ينجو من العذاب في الآخرة.

بعض الكتب التي صنفت في العلم

الكتاب	المؤلف والناشر
١ ــ تذكرة السامع والمتكلم في آداب العالم والمتعلم حـ١	لابن جماعة الناشر ــ دار الكتب العلمية ــ بيروت
٢ ــ العلم	للطبراني (مخطوط)
٣ ــ جامع بيان العلم وفضله ومايبنغي في روايته وحمله حـ٢	عبدالبر القرطبي الناشر ــ المكتبة السلفية ــ المدينة المنورة.
٤ ــ أخلاق العلماء	للآجري الناشر ــ مكتبة العرفان ــ دمشق
٥ ــ الجامع في آداب الراوى والسامع حـ ٢	الخطيب البغدادي الناشر ــ مكتبة الفلاح ــ الكويت
٦ ــ مفتاح دار السعادة حـ ١	ابن القيم
٧ ــ صفحات من صبر العلماء على شدائد العلم والتحصيل	عبدالفتاح بوغدة الناشر ــ مكتبة المطبوعات الاسلامية ــ حلب
٨ ــ الكفاية في علم الرواية حـ ١	الخطيب البغدادي الناشر ــ المكتبة العلمية ــ المدينةالمنورة.
٩ ــ اعلام الموقعين حـ٢	ابن القيم الناشر ــ مكتبة الكليات الأزهرية ، القاهرة .
١٠ ــ تقييد العلم حـ١	الخطيب البغدادي. الناشر ــ دار احياء السنة النبوية ــ دمشق .

الفهـــــرس

الموضـــوع | الصفحة

الموضـــوع	الصفحة

الموضـــوع	الصفحة

خامسا:

مطابع اليقظة